عبد الباقـــي يوســـــف

جســـــد و جســـــد

روايـــــــة

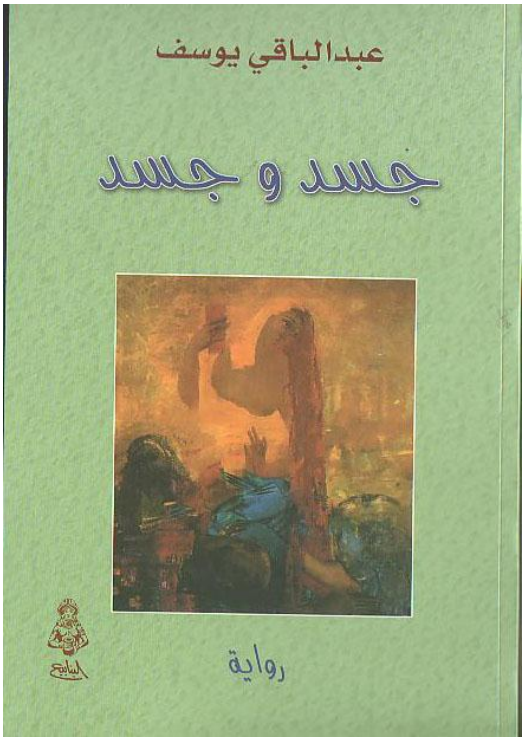
عبدالباقي يوسف
جسد و جسد
رواية

توالت طرقات خافتة متلاحقة على الباب، فكرت للحظات في مَنْ يمكن أن يزورني في الثامنة من صبيحة يوم الجمعة، هل حدث طارئ في القرية وجاء أحد أخوتي لإعلامي؟

وتتابعت الطرقات الخافتة للمرة الثانية ، نفضتُ يدَي من رغوة الصابون مسحتهما بالثياب التي أغسلها ووقفتُ أمام الباب مددتُ كفي إلى المفتاح وتذكرت قول أمي : لا تفتح الباب قبل أن تتأكد من معرفة الذي يقف خلفه . قلت : مَنْ ؟ ويدي تكاد تدير المفتاح . ولم يرد جواب : مَنْ ؟ .

خرجت الكلمة من فمي بصوت مرتفع كصدى ، وتناهت طرقة واحدة هذه المرة لتؤكد بأن الطارق ما زال واقفاً، فتحتُ الباب بشيء من السرعة وكأني أريد أن أخلعه من مكانه ، وقع نظري على وجه يميل إلى السمرة لامرأة قصيرة بعض الشيء في عشرينات العمر ترتدي ثيابا رثة تمد كفها إليَّ وقد سبقها صوتها كأنين : من مال الله .. لا تخجلني الله يحفظ شبابك .

ولفت نظري كيس الخيش المعلق بكتفها على طريقة حقائب الجنود السفرية.

إنها امرأة ، ولكن أي امرأة ، إنها لاتشبه النساء ، لقد أفقدها هذا المنظر المدقع كل لون من ألوان الأنوثة . قلت بنبرة كلها شفقة وعطف وقد أوشكتْ دموع أن تنزل من عيني : ماذا تريدين..؟

لبثت صامتة تنظر إلي ولم ترد ، انتابني شعور سريع بأنني ربما جرحتها بنظراتي أو بنبرات صوتي وأنا أسألها عما تريد وكان من المفترض أن أقدم لها ما أستطيع عليه دون تلك النظرات وتلك النبرة . أردت أن أخفف عنها هذا الشعور بالحرج وأعدل ما وقعت فيه من خطأ

فقلت : أقصد لا أعرف ماذا أعطيك ، يوجد خبز أتريدين رغيفاً.. تفاح.. بندورة.. خيار.. هذا كل شيء .

قالت وقد استردت نظراتها الطبيعية إلي : أعطني ما تشاء .

تراجعت إلى الوراء واتجهتُ إلى البراد ، سحبتُ رغيفاً من الخبز وتفاحة وبندورتين.. ولمّا استدرت رأيتها دخلتْ في فم الباب وهي تفتح كيسها ، وضعتُ ما بيدي في فم الكيس ، ثم عدتُ مرة أخرى إلى الخلف ، مددت يدي إلى حقيبتي الصغيرة وناولتها ورقة نقدية بفئة الخمس ليرات.

مدتْ كفها تأخذ الورقة النقدية و أجالت بنظرها في الشقة ثم مالبثت أن تمتمت وهي تنظر إلى الثياب المرمية على الأرض جانب طشت الغسيل : أأنت طالب؟

قلت: لا.. بيتنا في القرية، وأنا مستأجر هذه الشقة لعملي في المدينة .

قالت : اليوم عطلة، لماذا لم تذهب القرية ليغسلوا ثيابك.

قلت : أحب أن أبقى يوم العطلة في البيت

فقالت : هل تريد أن أغسلها لك؟

نظرتُ إليها ولم يكن بوسعي أن أرد على الفور ، لكنها أردفت بشيء من إلحاح :

هل تظن بأنني لن أنظفها ، لاتخف ، سأنظفها أكثر من غسّالة ، وستعطيني تعبي ، أحيانا أغسل ثياب عائلة كاملة في بعض البيوت ، لقد تدربت على ذلك .

قلت وصوتي يرتعش وأنا أتخيل للحظة بأنني متزوج وهاهي زوجتي تغسل الثياب : كم تريدين ؟

قالت : الذي يطلع من خاطرك أنا راضية به .

وهنا اعتراني ذات الشعور الذي ربما اعتراها أول الأمر ، أو لعلها أرادت أن ترد على ذات الشعور الذي سببته لها ، فها هي تريد أن تشفق بي وهي تنظر نظرات شفقة وعطف إلى شاب يقف أما م طشت غسيل يغسل ثيابه وكان من المفترض أن تكون ثمة امرأة تقوم بذلك ، أو على الأقل تكون ثمة غسّالة تيسر عليه عملية الغسيل ٠ فقلت : لا لا لاأقبل بذلك ، لنتفق على الأجر أولا .

قالت وقد علت بسمة شفقة مرة أخرى على ثغرها : كم تدفع ؟

كم سأدفع ، أعدت السؤال في خاطري مرات عديدة ثم قلت بعد صمت لم يطل وأنا أنظر إلى كومة الثياب : سأعطيك خمسين ليرة حلالا وزلالا .

قالت : ألا تريد أن تزيد شيئا ؟

قلت: العملية كلها لا تستغرق نصف ساعة ، خمسون ليرة بالجهد أفضل من خمسمئة ليرة دون جهد .

قالت بشيء من الانفعال وقد وضعت الكيس على الكنبة مستعدة للغسيل : أنت مصر أن تجرحني كل مرة بكلامك ، لكن لأبتلع هذه أيضا ، موافقة أعطني .

فتحتُ حقيبتي مرة ثانية ولم أجد غير فئة المائة ليرة عندئذ قلت: ألديك رجوع ؟ وأبرزتُ الورقة النقدية الزرقاء. فمدتْ أصابعها إلى طرف المحرمة التي تغطي شعرها وبسرعة فائقة فكّتْ عقدة وبدأت تناولني أوراقاً بفئتَي الخمس والعشر ليرات، وتناولتْ من يدي المائة ليرة وعقدتْ عليها طرف المحرمة، ثم باشرت في الغسيل.

استلقيتُ على الكنبة أتابع برامج يوم الجمعة في التلفزيون، قاطعتني: ألا يوجد لديك حمام للغسيل ،

قلت : يوجد ، لكن اعتدت الغسيل في الصالون حتى أغسل وأنظر إلى التلفزيون ولا أحس بالوقت ٠

بعد قليل تمتمت وهي تنظر في الثياب التي تغسلها: لماذا لا تتزوج .. المرأة هي حياة الرجل ؟.

- عندما يأتي الوقت المناسب سأتزوج . أجبت وأنا أتابع النظر في التلفاز ٠

قالت ببسمة وقد رفعتْ وجهها الشاحب إليَّ ومسحتْ أنفها بكم جلبابها الأخضر: ألديك حبيبة ؟.

نهضتُ إلى التلفزيون .. بحثتُ في المحطات الأرضية ، لم أجد ما يعجبني فتركته على أغنية تركية في المحطة التركية الثانية وعدتُ إلى الجلوس.

لم تكرر السؤال ، وبعد قليل قالت : أين أنظف الثياب ؟

فقلت : على المغسلة في الحمام .. فحملتْ الثياب في الطشت البلاستيكي على رأسها وغابت نحو عشر دقائق وعادت حاملة الطشت قائلة: أين ستنشر الثياب ؟

قلت : على البلكون

قالت : وهل يقبلون؟.

منْ ؟. قلت باستغراب

الجيران . أجابت

قلت : ولِمَ لايقبلون ؟ !

قالت في محاولة لتثبت بأنها جادة وتقصد ما قالت : أعني.. ألا يتضايقون عندما يروننـي.. هؤلاء مجانين.. سينظرون إليكَ نظرة ريب عندما يجدون غجرية في بيتك .

- لنفترض أنكِ خادمة.. تعملين لقاء أجر هل هذا سيضايقهم.. إنني مستأجر شقة مستقلة بي .

قالت بكآبة : ما يضايقهم بالذات هو "غجريتي" فقط ! . وبعد قليل من التردد اتجهت معي إلى البلكون تنشر الغسيل ٠

تركتها وعدتُ إلى الغرفة لفتَ الكيس نظري، فمددتُ يدي إليه وفتحته.. ألقيت بنظرة فاحصة في المحتويات : برغل.. تظهر حبات رز بينه ، وكيس يحتوي على نحو نصف كيلو من السكر ، وآخر على حفنة شاي سعودي أحمر اللون ، كسرات خبز ، حبات خضار موسمية رخيصة.. وسمعتُ وقع خطواتها أعدت إغلاق الكيس بواسطة جر الحبل المطاطي الأبيض. وشردتُ في هذا اللون من العيش على فضلات الآخرين ، إنه شكل خاص بهم ولو عرفتُ هذه الفلسفة لعرفتُ المزيد ، لا أستطيع أن أحكم على الشكل ولماذا لا يكون هذا النمط من العيش أكثر صواباً ؟

دخلتْ الصالون ناولتها البشكير فالتقطتها بخجل وبدأت تمسح يديها وتتأهب للخروج : لماذا مستعجلة ؟

- لألتقط رزقي أنا فقيرة بائسة معدومة ألا تشفق عليَّ ؟

وتأملتُ ثيابها البالية المتسخة مرة أخرى فصدرت منها رائحة نتنة . رفعتُ نظري إلى وجهها ووقعتُ عيناي على حجم الغبار ومن تحت المحرمة لمحتُ قيراطاً في أذنيها فأعلمتني بأنه الوحيد الذي تلقته يوم زفافها منذ ما يقارب سنة .

ألحت عليها أن تتناول طعام الإفطار ، بيد أنها رفضتْ بعناد ولم تمد يدها إلى كسرة خبز .

: هل أنت موظف ؟ قالتها وهي تنظر إليّ بخجل.

قلت : لا عملي حر خارج التوظيف ، أنا أيضا أريد أن أكون حرا حتى في عملي . ولا أدري لماذا ألحتْ على معرفة مكان العمل فأشرتُ إلى الموقع الذي أمارس فيه عملي فعرفته وقالت بأنها تمرق من هناك بكثرة، ثم تناولتْ كتاباً وهي تتمتم لنفسها : ليتني دخلت المدرسة،، منذ طفولتي كانت أمي تأخذني معها إلى البيوت وتعلمني طرق التسول: يا بنتي لا تفقدي الأمل في أحد،، الشاطرة هي التي لا تترك أحداً إلاّ وتأخذ

منـه قسـمتها ، غـداً سـتكونين مثـل أمـك لـن يتزوجـك طبيـب ، هـذا هـو مستقبلنا.

وفـي السـنة الماضـية عنـدما تزوجـتُ غجريـاً عرفت بـأن البنـت لـن ترضـى عن نفسها إلاّ عندما تنجح في أن تكون صـورة طبق الأصـل عن أمها. ولما منعني زوجي من التسول، وأراد أن يقعدني فـي البيـت خيّرتـه أن يطلقني أو يدعني أكون نسخة عن أمي .

ـ ألستَ غجريا يا بن الغجر هل خفتْ عليك طباعنا ألم تعرف أمـي ، أنا اعتدتُ طرق أبواب البيوت هذه هي حياتي مثل حيـاة أمـك وأخوتـك ، وأمي وأخوتي وكل هذه البيوت لماذا تريدني أن أكون شاذة ؟.

ـ سأعمل في صناعة الأسنان وأكسب كثيراً .

ـ كلهم يعملون مثلك ولا يمنعون زوجاتهم.

ـ أنتِ صغيرة أغار عليكِ.

فقلت لـه الحكاية التي كانت أمي ترويها لأبي على مسمعي وهـي أن رجلاً كان يغار على زوجته فقالت له: غيرتك لـن تمنعنـي مـن خيانتـك إن أردتُ الخيانة.

قـال : لا تسـتطيعين مـا دمـتُ أحاصـركِ ، المـرأة تخـون زوجهـا عندما يترك لها الحبل على الغارب ٠

قالـت لـه: كـن حـذراً يارجـل ، بـل أسـتطيع أن أجعلـك تخلـع لـي سروالي بيديك حتى أخونك لإذا نويتُ على الخيانة ٠

فصفعها واشتدتْ غيرتـه عليهـا وبـدأ يراقبهـا أكثرممـا كـان عليـه ، وذات مرة تذكرت المرأة كلامها معـه وأرادت أن تمارسـه فصـاحت بـه ، ولما حضر رآها تعجن العجين للخبز قال : ماذا تريدين ؟.

قالـت: ألا تـرى يَـدي فـي العجـين ، أنـا متضـايقة أريـد أن أدخـل المرحاض بسرعة ، من فضلك اخلع سروالي فخلـع سـروالهاحتى تبقـى بالجلباب دون سروال داخلي واتجهت على الفور إلى باب المرحاض ثم

خرجتْ بعد قليل وطلبت إليه أن يعيد سروالها ففعل، عندئذ قالت له: ها أنا ذا جعلتك تخلع سروالي لأخونك وجعلتك تعيده إلي بعد أن خنتك .

قال: كيف..؟!

قالت:عندما أخذتك إلى الدار لتخلع السروال دخل هو المرحاض ، وعندما أعدتك إلى الدار لتعيد السروال خرج هو من المرحاض .

فصمتَ زوجي وعلى الفور رويت له حكاية المرأة الغجرية التي تزوجت ثرياً من غير الغجر وكانت جميلة ساحرة - كما تقولون أنتم - : "لو كانت غير غجرية لارتفع مهرها إلى مليون ليرة وتقدم إليها ألف شاب".

فوقع رجل ثري من المدينة في حبها عندما رآها تتسول مع رفيقات لها وتتبّع خطواتها إلى أن دخلت خيمتها ، عندئذ جاء يطلبها واشترط أن تتوقف عن التسول فوافقتْ على شرطه ووافق أهلها فتزوجا وأسكنها في قصره الكبير ، وفرّ لها كل ما تشتهيه من ثياب وطعام وأموال وخدم ، وكان يخرج في الصباح إلى عمله ويعود ظهراً، يحظّر عليها الخروج من القصر، وذات يوم قصد أن يعود مبكراً خلسة إلى البيت لينظر إلى زوجته في وقت فراغها ، فدخل قصره وتقدم إلى غرفتها ، مدّ رأسه إلى النافذة فرآها وقد علّقتْ كيساً من الخيش على كتفيها ووزعتْ في كل ركن كاسات وصحوناً من السكر والبرغل والرز والشاي وكسرات خبز وقطع نقود معدنية ، وكلما تقترب من ركن تمد يدها قائلة : من مال الله .. ثم تتناول ماتقع عليه يدها وتفرغه في كيسها وتتجه إلى الركن الآخر حتى يمتلئ الكيس وتتمتم لنفسها : يالها من ذكريات رائعة تفوق سعادتها سعادة كل مالدي في هذا البيت الطويل العريض ، كم أحسد الآن قريباتي اللواتي يطفن في الطرقات ويقرعن البيوت ، يالهن من محظوظات بتلك الحرية الغجرية الثمينة التي أفقدني إياها بعلي .

وأقنعتُ زوجي بأنه لا يستطيع أن يمنعني من هذه العادة فصنعنا خيمة خاصة بنا وانفصلنا عن خيمة أهله.

ونهضتْ معلنة عن تأخرها وقد مسحتْ يديها بجلبابها : لا أستطيع أن أجلس في البيت ثلاثة أيام متواصلة حتى في الأعياد .

- وأين تسكنين الآن ؟.

قالت وقد حملتْ الكيس : نحن غجر "رأس العين" نأتي إلى الحسكة مع بداية الصيف نلملم رزقنا ونعود إلى بيوتنا مع بداية فصل الشتاء.

وأعلمتني عن موقع خيمتها وترجتني أن أزورها في الوقت الذي أشاء من بعد الظهر.

وقالت بأن زوجها يعمل في صناعة الأسنان بشكل متقطع ولديه دراجة نارية نوع / ستار / ذات عجلتين يلاحق عمله بواسطتها.

وعند العتبة قلت لها: هل ستأتين كل يوم جمعة لغسل الثياب ؟.

قالت: إن أعطيتني ما طلبته أولاً .

قلت: سأعطيكِ .

خرجت هذه المرأة من البيت ولكنها دخلت مكاناً أقرب ، غابت وتركت بصمات صوتها تشتعل في شجرة الذاكرة، ما يشدني إليها بصورة عجيبة هو تلقائيتهاوطفوليتها وعفويتها وعدم تصنعها الكلام، الصدق الطفولي ، فطرية الإنسان الأولى ، وحتى الصوت يا إلهي وربما اللمسات الغجرية العريقة التي خلفتها في البيت ٠ نسيتُ أن أسألها عن اسمها، كيف استطاعت أن تقيم كل هذا الطوفان في فسحة القلب الضيقة، وعددتُ على أصابعي : السبت – الأحد – الاثنين – الثلاثاء – الأربعاء – الخميس – ستة أيام أخرى وفي اليوم السابع ستجيء كاليوم تماماً، كاللحظة ستكون هنا كاللحظة أين هي تلك اللحظة ياه كم تبدو بعيدة.. بعيدة تبدو كالمستحيل الذي لا يتحقق هل

ستحل تلك اللحظة،، لحظة الدخول المباغت ، وهل سيحظى سمعي مرة أخرى بتلك الطرقات الغجرية الخافتة ؟!.

عند المساء استلقيتُ في الفراش مبكراً وغدوت لاأنتظر يوما جديدا إلا لأنه يقرّب الموعد من ساحرتي ، أنام لأنهض وقد فات يوم وكل ما يهمني هو أن يأتي الصباح وعندما يأتي أريد أن يأتي الآخر هذه المرأة الغجرية أي أثر تركته ولماذا تشدني بكل هذه القوة !! ٠ يوم الاثنين صباحاً جاءت أختي يرافقها خالي إهاب من القرية وطلبت مني أن أصطحبها إلى دائرة السجل المدني حتى تبصم لتحصل على هوية شخصية بدلا عن تالف لأنها تركت بطاقتها في ثياب الغسيل وتم إتلافها في الغسالة . استغرقتْ هذه العملية إلى صبيحة يوم الأربعاء بعد أن عاد إهاب إلى البيت ولأول مرة أخفيت عنها ثيابي المتسخة كي لا تغسلها وبسرعة كمن يود التخلص من عبء أعدتها إلى القرية وهي تشعر بأنني طردتها ، لقد تحملتُ نظراتها العميقة المؤلمة إلي من أجل أن يكون البيت مهيئا لاستقبال ساحرتي تخيلت غجريتي الجميلة تجلس الجلسة الغجرية أجل "غجريتي" سأقولها ما دام لا أحد يسمعني تجلس تغسل الثياب وتروي لي حكايا أجدادها الغجر.

في أمسية يوم الخميس اتجهتُ مبكراً إلى الفراش كعادتي في الأيام الماضية ، وأخذتني الرائعة إلى مملكتها السحرية ككل ليلة ،أغمضتُ عيني و تخيلتُ دخولها ، كلماتها ، حكاياها.. وأشارت الساعة إلى الواحدة لم تتركني أغفو سهرتُ حتى الخامسة في رحاب مملكتها البهية ، عندئذ نهضت حلقت ذقني اغتسلت مشطت شعري وارتديت ثياباً جديدة ، أحضرتُ الحليب من الدكان المجاور أحضرت كأسين وفي تمام الساعة السابعة إلا ربعاً طرقت الغجرية طرقات خافتة ومالبثت أن أدارت قبضة الباب ودخلت ، كانت أكثر سحرية وأكثر جاذبية من قبل ، وبدا لي أنها استحمت بشكل جيد ليلة أمس ونامت لتستيقظ وتتجه على

الفور هنا ، لبثتُ أنظر إليها وهي واقفة ، أتأمل من جعلتني أنتظرها أسبوعا كاملا بكل مافيه من ساعات ولحظات ، لقد بدت أكثر إشراقا وأكثر طفولية وقد غاب عنها القلق الذي بدا عليها لحظة الدخول الأولى ، وعلى الفور وقبل أن تضع كيسها المصنوع من الخيش على الكنبة قلت: ما اسمكِ ؟

قالت بابتسامة وهي تنظر إلى وجهي بتلقائيتها المحببة : ولِمَ تريد أن تعرف اسمي ؟

قلت : لأناديك بـــه

قالـــت : قل لـي : سـما ح ، هذا هو اسمـي

قلت: هل تشربين الحليب ؟.

أخفضت رأسها بالإيجاب وتمتمت : إنه جيد للمعدة لكن لا يوجد في الخيمة غير الخبز اليابس والشاي صباحاً، هل تشربه كل صباح ؟

قلت: أنا فقير لا شيء لدي في هذه المدينة ، لا أملك متراً واحداً من الأرض أسكن فيه لا شيء على اسمي إطلاقاً ، أما كل هذه الأغراض والأثاث التي تملأ الشقة فقد أخذتها كلها بالتقسيط وما أزال أدفع ثمنها كما أدفع أجرة البيت شهريا .

مدت يدها إلى قطعة جبن وتناولتها مع الرشفة الأخيرة من كأس الحليب ونهضتْ سخنت الماء وأفرغت فيه المسحوق ثم قذفتْ الثياب الداخلية البيضاء في الماء المغلي وبدأت تغسل الثياب الخارجية المتراكمة على الأرض .

أشغلتُ التلفزيون واستلقيت على الكنبة أشاهد بعض البرامج .

قالت: كم الساعة ؟.

قلت: انظري إلى الساعة الكبيرة فوق التلفزيون، نظرت إليها وعادتْ تنظر إليَّ فعرفتُ من نظرتها بأنها لم تعرف، عندئذ قلتُ لها: سماح ما رأيكِ بساعة ؟.

قالت: لكنني لا أفهمها.
قلت: سأعلمك ِ.
قالت: اشتر لي بثمنها خاتماً ذهبيا ً.
قلت: لا، أنا مصر على الساعة.
قالت: ماذا سأقول لزوجي ؟.
قلت: لا أعرف .
قالت: سأقول وجدتها في طريقي .
قلت: لا أريد أن تكذبي يا سماح سنعثر على حل آخر المهم الآن سأعلمك على ما تعنيه أمكنة العقارب، وعندما تتعلمين سأشتريها لك.
وبدأت أشير إلى العقارب.. الساعات.. الدقائق.. الثواني.. وعرفتُ بأنها لا تفقه الأوقات فهي لا تعرف أي ساعة يكون الصباح.. فقسمّتُ لها الساعات على أوقات اليوم ، هذا الفصل ساعات بداية النهار /الصباح/ تبدأ من السادسة وتنتهي عند نهاية العاشرة.. وبعد ذلك يأتي الظهر حتى الرابعة.. ويبدأ العصر.. حتى السابعة.. حيث يبدأ الغروب حتى التاسعة.
والآن متى تعودين إلى البيت كالعادة.
قالت: بعد أن يؤذن الظهر بقليل .
قلت: لنفترض أنك في مكان بعيد عن صوت المؤذن كم الساعة ستعودين ؟.
قالت: لا أعرف.

وعرفتُ بأنني سأجد صعوبة كبرى في تعليمها ولكن سأفعل شيئاً ، أشعر بأنني أقوم بعمل إنساني ، هي تعينيني، وأنا سأعينها لن أهدر كل عمري من أجلها سأمنحها ساعة واحدة في الأسبوع الساعة التي أكون

فيها في البيت يوم العطلة، وبعدها سأعلّمها القراءة إنها ما تزال في بداية العمر ٠

وفكرت بأن أكون على حذر شديد في مهمتي وهي تجربة واقعية تعني لي الكثير، تعني المستقبل إنها لا تعرف شيئاً وسأصنعها ، أعلمها كل شيء وسأتابع نتائج عملي وهي مهيأة لاستقبال كل خطواتي في لا شعورها ، طفلة في العشرين لا تعرف العد ولا المعدود لا تعرف الموسيقى لا تجيد القراءة لا تدرك الفن التشكيلي لم تدخل المسرح لا تعرف شيئاً عن تاريخ العالم الحديث ولا القديم لا تعرف ما يجري الآن وما جرى في السابق.

وأي طفولة أبعد من هذا..؟ حتى الكلام أحياناً تتعثر ببعضه ٠

أخذتْ الثياب المغسولة إلى المغسلة ،، وبعد قليل نشرتها على حبل الغسيل . ولما عادت ، ناولتها مئة ليرة ثم ملأت كيسها بالخضار والفواكه والخبز وتذكرتُ ما بقي من سكر العيد فمددتُ يدي إليه وناولتها : هذه هدية.. ثم أعطيتها بنطالاً وقميصاً من ثيابي : لزوجكِ ٠

وبينما تتناولها من يدي لمحتُ يدها ترتجف فقلت : ما بها يدكِ؟

: لا أعرف،، منذ سنة هكذا ترتجف.

: بسبب سوء التغذية ، مارأيك أن يعالجكِ طبيب.

: لا لا أي طبيب ، لا شيء ، لا تكبّر الصغيرة ، وهل سأذهب لعيادة طبيب من أجل رجفة يدي؟

: بل أنا أصغّر الكبيرة ، يمكن لنصف ساعة أن تزيل عنك هذا الذي قد يكبر ويصبح عبئا أبديا لايمكن التغلب عليه ٠

نظرت إليَّ متمتمة بحزم : لا لا.. أنا خائفة لاشيء هناك ، عندما أذهب إلى الطبيب ستظهر علي أمراض لم أكن أعلمها .

: ليس الآن،، مرة أخرى ، لكن لماذا لاتأكلين جيدا وأنت هنا ٠

قالت : اعتدت أن أحمل كل شيء إلى الخيمة لنأكل هناك ٠

ولكنني عرفت بأنها خائفة من أمر كهذا في بيوت الغرباء ، فهي تتحدث بصوت راجف وقد علاها اصفرار

جلستْ على الكنبة قائلة : اليوم سأتأخر عندك لأنني سأذهب من هنا فوراً إلى البيت.

قلت: لِمَ ؟.

قالت وقد مدّتْ يدها إلى الصحون : أعطيتني أكثر من يوميتي سأغسل الصحون وأشطف الغرف وأغسل أرضية البلكون وأنظّف البراد والتلفزيون والمروحة أرتب أشرطتك وكتبك ٠ وباشرتْ في حملة النظافة دون أن تدعني أنهض من الكنبة. قلت لها: يا سماح مارأيك أن تتعلمي القراءة في الزيارات القادمة.

- لا أريد أن يكبر عقلي دعه صغيراً.
- لماذا ؟.
- لأن العقول الكبيرة يجب أن تكون للرجال المرأة عندما يكبر عقلها تتحول إلى رجل دون أن تدري ، وعندما تتحول إلى رجل يرفضها الرجل ، لأنه يريدها امرأة لذلك فأغلبهن لا يتزوجن ٠ أعرف الكثيرات منهن وقد بلغن الأربعين أنا تزوجتُ قبل العشرين. أنا لا أعرف شيئاً ولكن لم أترك باباً إلا وطرقته لا يوجد في هذه المدينة من طرق أبواباً بقدري ، خلف كل باب يكمن سر والغجرية الماهرة هي التي تكتشف هذا السر وتتعلم منه حكمة ، إننا لا نأخذ النقود فقط بل نأخذ الأسرار والحكم معها.. أنا أعرف أسرار البيوت أكثر من أصحابها ، وعندما ألمح أي شخص في الطريق أعرف بيته وأعرف طباعه وعمله وحالته الاجتماعية وأخلاقه ٠ أرى مفاجآت عند نساء متحفظات.. مومسات.. شاذات.. متدينات.. سيدات ثريات.. ذوات مواقع اجتماعية ٠ لذلك أنا متعلقة بعملي ولا أتصور بأنني سأتركه وإن حدث وتركته فإنه

سيكون اليوم الأخير في حياتي إنني أقدس عملي ومتعلقة به أكثر من تعلقي بأي شيء آخر في حياتي ٠ .

- سماح،، هل ستأتين كل يوم جمعة؟.

- نعم ، والله سأجيء.

- أخاف أن تخلفي .

- إذا أخلف كل الناس عهودهم، فإن الغجرية ستفي به.. وإذا خان الناس كلهم.. فإن الغجرية ستبقى مخلصة إن أرادتْ. ليس بمقدورك أن تعثر على إنسان عنيد في إخلاصه بقدر المرأة الغجرية إذا أرادت أن تكون مخلصة .

- هل تجيدين الغناء؟

- أجيده بلغة العصفور ، وهي لغتنا الخالدة التي تميزنا ، لغة الغجر التي هي قريبة من زقزقة العصافير ، وكذلك لأننا نبقى متنقلين كالعصافير ٠ عندما تتحدث الغجرية بلغتها تشعر بأنك أمام عصفورة ٠

وغنت أغنية باللغة الغجرية بصوتها الشجي العذب : " أنا البنت الغجرية أيها الشاب ، أنا عاشقة الحرية الأزلية "

وأنا أقوم بتسجيلها على / كاسيت /

: هل تتركني الآن أنصرف؟ جاء صوتها الغير مسموع .

: كما تشائين .

: قلها لي شجعني ، كم الساعة

: الواحدة .

: ألن تذهب إلى القرية يوم الجمعة القادم .

: لن أذهب ما دمتِ تأتين

: يبدو أنني اعتدت عليك

: ليس بقدري

: أكثر

: لا أصدق
: كما تريد ، وخرجت من الباب
لحقتها إلى الشارع ، وقفتُ أمام الباب الخارجي ومضتْ في الشارع الطويل وبين خطوات وأخرى تستدير وتراني ما أزال واقفاً تحت الشمس فترفع يدها وأرفع يدي وفي نهاية الشارع، استدارت توقفت للحظات ارتفعت يدها ، رفعتُ يدي ثم اختفت ٠

سين ، ميم ، ألف ، حاء
مرة أخرى تقتحمني المرأة بعنف تغزو كل زوايا الروح تفرض حضورها على فضاءات الذاكرة تملأ كل مساحات الجسد برائحتها وتخلّف في الغرفة حضورا عجيباً .
قررت منذ ستة شهور بعد فجيعتي الأخيرة بالمرأة أن أتجنب المرأة وأواصل عملي فقط وعندما يتحسن وضعي الاقتصادي سأتزوج بدون حب كالملايين الذين يتزوجون فقد من أجل أن يتزوجوا وينجبوا أطفالا . أفهم بأنه قرار صعب ، ولا يعجبني السعي خلف الكلمة المضبوطة التي تفسّر تفاصيل الحب، أو تعرّفه.. فالحب عندما يُعرّف يفقد معناه ولحظاته السحرية إنه القيمة التي تكون أعمق كلما استحال تعريفها وأعرف أنه لا شيء يمكن أن يرتقي إلى عظمة أن يحب إنسان إنساناً وأن يكون هذا الحب متبادلاً وكما أن المعشوق يكون محظوظاً لأنه وجد من يحبه كل هذا الحب الثري ، كذلك الأمر بالنسبة للعاشق لأنه وجد مَنْ فجّر لديه كل هذه الطاقة المخزونة من الحب.
مرة أخرى تأتي من تحرّك بقايا هذه الطاقة النائمة في أعماقي غجرية تعرف كيف تصطاد الرجل وتضعه في خيمة حبها ، امرأة ليست كالنساء يمكن في لحظة ما أن تغتال نساء العالم وترغم حضورها

على الذاكرة امرأة ذات تاريخ عريق ممتد لآلاف السنين من العشق والتسكع والتشرد والعدم ، امرأة تعيش في القاع في الدرك الأسفل من الحياة ، مثل أي مسحوق يلتقط طعامه من فضلات الآخرين ، ولهذه الطريقة في العيش إيجابياتها ويمكن أن تعلمني، لقد أتاحت لها ظروف بيئتها أن تطرق معظم أبواب المدينة

عاشت في بيئة متحررة، منذ طفولتها تعيش الحرية الحقيقية مع إدراكي بأنها حرية كبرى والآن بدأتُ أحن إلى تلك الحياة الغجرية المتنقلة وأشعر بجسامة الخسارة لأنني أعجز عن الانخراط في تلك الحياة يجب أن أجرب ذاك النمط من العيش ولو سنة واحدة أو نصفها حتى أتعلم ، علي أن أخوض التجربة والآن.. ياه كم بي توق لأنام الليلة في خيمة مجاورة لخيمة سماح .

كفاقد قيمة كبرى، دون أن يدركها ولا يحس معنى فقدانها، ولما رآها أدرك بصدمة عنيفة حجم خسارته في سنوات الفقدان الفارغة وأدرك للتو أيضاً بأنها حقيقة كانت فارغة وأنه كان مغفلاً دون أن يدري .

كنتُ أعلم بأن الحياة تُمنح لجميع المخلوقات والآن علمتُ بأن الإنسان يستطيع أن يفجّر طاقة في الحياة ، والآن أدرك حجم المسؤولية تجاه حياتي وحياة سماح لأصنع من هذه الحياة أغنية ، كم هو رائع أن تدخل حياة الرجل امرأة إنها الكنز الأكثر بقاءً وثراءً من أي شيء آخر، وأنا أمضي في الطريق أشعر بأنني على موعد مع كائن جميل.

فتحتُ عَيني، وكانتا على مسافة سبابة من عينَي سماح : هل جئتِ؟

- لا .. هذا هو خيالي

واستنشقت نفساً من فمها طاب لي :

يالسحريتك ياسماح . قلتها ويكاد فمي يلمس شفتيها

متى خرجتِ من البيت؟ ونظرتُ إلى الساعة: إنها السادسة.
- خرجتُ عندما خرج الضوء .
- وهـــــو ؟
- قلت له بأنني لن أعود قبل العصر.
- هل وافق.
- المشكلة أنك لا تفهم تركيبة المجتمع الغجري .

دوماً أعجز عن الأسلوب الأسهل الذي يوضح ما أعجز عن إيجاده ، أنا الآن صغيرة أي يجب أن أتعب الآن حتى استريح عندما يتقدم بي العمر أستطيع أن أتجول يوماً وأجلس في البيت يوماً وبعد خمس سنوات سأتجول يوماً، وأستريح يومين وبعد عشر سنوات أتجول يوماً وأستريح ثلاثة أيام وبعد عشرين سنة أتجول يوماً وأستريح أسبوعاً وبعد ثلاثين سنة أتجول يوماً وأستريح عشرة أيام وبعد أربعين سنة أتجول يوماً وأستريح أسبوعين وبعد ستين سنة أتجول يوماً وأستريح في خيمتي دون أن أخرج وأنا أشتهي الخروج ٠ إذا رجعتُ مبكرة الآن سيوبخني ويذكرني بالشيخوخة ، كلما تأخرتُ ساعة في التجول ، كلما يحس وأحس بشبابي وكذلك يحس الجيران ٠ أما جارنا كالعادة سيوبخ زوجته ويهينها لأنها عادت مثل الدجاجة مبكرة ، سيحسد زوجي عليَّ وسيرفع زوجي رأسه بي لأنني أتمتع بكل هذا النشاط وكل هذه اللياقة ، كلما عدتُ متأخرة استقبلني بحفاوة أكثر ، أكرمني أكثر ، أطاعني أكثر.

وتراجعتْ إلى الوراء، أشغلتْ المروحة وعادتْ إلى مكانها، شعرتُ ببرودة الهواء لأنني لا أرتدي غير الشورت، فغطيتُ النصف الأسفل من جسدي بالبطانية، ودفعتني إلى الحائط مفسحة مكانا لجسدها ، استلقت بجانبي وهي تتمتم : نعسانة، لم أنم ليلة البارحة ٠ وأغمضتْ

عينيها : أنا شبعتُ النوم ، ونهضتُ أشغلتُ المسجلة جاء صوتها : اسمعني أغنية تحبها .

قلت: أريد أن أسمع صوتك .

- : هل تحب صوتي؟.
- إنه يسحرني حتى وأنا لاأستوعب المعاني
- وأنا هل أملأ عالمك ؟
- انتظركِ كما تنتظر العصافير أشجار الربيع .
- صحيح؟
- لذلك تركتُ الباب مفتوحا ً.
- أمن أجلي تركته؟
- حتى هو كان ينتظرك ويزداد شوقاً ليُدخلكِ إليَّ وينغلق، ما رأيك أن نفطر؟
- سأغسل الثياب أولاً .
- لا ، سنأكل ، ألستِ جائعة؟
- لا ، بعد الغسيل سأجوع .
- بعد الغسيل .
- الجمعة الماضية، عندما خرجتُ من عندك ، صا حتني امرأة من إحدى البيوت فذهبتُ إليها وغسلتُ لها الصوف ساعتين وتأخرت عن البيت ، لكن الرجل كان سعيدا لأنني قمت بعمل إضافي
- كم أعطتكِ؟
- مئة وخمسين ليرة أعطيتها لزوجي ونقودك بقيتْ لي .
- هل لديك نقود؟
- لدي
- أين؟

- أخفيها في صندوقي الخشبي في الخيمة
- ألا تخافين أن يسرقها أحد
- لا ، الصندوق ثقيل ، أنا لا أفكر بهذه المسألة النقود أيضاً مثل الثقافة تكبّر العقل وتوسّع المشاريع ، لاأتسول من أجل أن أكون ثرية ، بل من أجل أن أبقى أدور في البيوت ، وضحكت بصوت شبه مرتفع : يمكن أن تقول بأنها هواية تحولت مع الأيام إلى إدمان مثل تلك الغجرية الجميلة التي تزوجت ثريا ٠

لولا خوفي من المخاطر المفاجئة لما أخفيتُ قرشاً واحداً نحن نكذب على أنفسنا وعلى الآخرين عندما نقول بأن الإستقرار في المال وأنه ضماننا الوحيد أي ضمان هذا أنا الآن معك أحس بأمن العالم وضمان العالم وثراء العالم ، لكن أحياناً يحلو لنا أن نكذب على أنفسنا، يروق لنا أن نصدق هذا الكذب على أنه حقيقة لا حقيقة غير اللحظة. هذه اللحظة التي أكون معك فيها وأحس بنشيد في أعماقي يتعالى ويطربني وبعد سنوات طويلة.. طويلة لا أحد يعلم ما سيحدث لنا ، لكن ثمة شيء لا بد وأن يحدث كما لو أنني أراه الآن . خرجت العبارة الأخيرة بغصة ثقيلة بالكاد من حنجرتها و تركتْ السرير جلستْ على الكنبة. وبدأت تغني وتذرف الدموع بغزارة وأنا استمع إليها وأنظر إلى عينيها السخيتين وأعدّ الطعام ٠ لم استطع أن أعي شيئا غير أني أدرك بأنها تغني بحزن العالم وقبل تفرغي من وضع الطعام في الصحون قالت وهي تمسح عينيها من الدموع الفائضة : سأعلمك شيئاً مقابل أن تعلمني القراءة ومعرفة الساعة . علمتُ بأن تلك الأغنية خففت عنها الكثير وغسلت عنها كل حالة الحزن ، حتى صوتها بدأ أكثر صفورا ورقة وقد أشرق وجهها ببسمة كأنها شمس فقلت: أي شيء؟

قالت : أجل لابد أن أعطيك شيئا تفتقده ، انظر، أنت لا تجيد لغتنا لغة العصفور ما رأيك أن تتعلمها .

قلت: وقد تركتُ الطعام : هذا شيء رائع ستعلميننني لغة "لغة" لا كلمة ولا كلمات

قالت : سأبدأ بأول كلمةولتكن الكلمة الأولى التي تعرفها هي الحب ما رأيك؟ أعني الحب بين الرجل والمرأة .

قلت: موافق.

قالت: "هتى وك كيايه"

والكلمة الثانية هي: الماء.

قلت: نعم ؟

قالت : بّاني .

والكلمة الثالثة هي: الخبز

قلت : نعم ؟

قالت : منا.

قلت : والشاي؟

أجابت : كلدا

- والطفل؟

= جّونا.

- اجلس؟

= بافيشتي.

- دجاج ؟

= حمّاري.

- كلب ؟

= جّما.

قلت: والفرج ؟.

ضحكت وقالت : لكتي .

قلت : وهو ؟

قالت : قار
وبعد تناول الطعام قلت لها : لماذا لا تنجبين أطفالاً
- لا أريدهم الآن الخيمة لا تتسع .
- وهو أيقبل ؟
- أتناول الأقراص المانعة دون علمه .
- لكنها مؤذية
- لا توجد طريقة أخرى ، إحدى صديقاتي وضعت اللولب لكنهاحبلت ، إنه شرس ، يعاشرني كل مساء بالرغم عني لقد كرهته وكرهت كل ما يذكرني بالمعاشرة إنه لا يفعل شيئاً سوى الأكل والجنس والتدخين والخمر ، أحيانا ينهض صباحا فيشرب ، كان يصنع الأسنان الذهبية والفضية قبل أن يتزوجني ولكنه الآن توقف عنها إلا بشكل متقطع ، أو عندما يأتيه زبون إلى الخيمة ، وأحيانا يذهب فيصطاد الأرانب البرية مع بقية الغجر. أنا لا أحبه ولكنني لم أجد أفضل منه ، ليس بالضرورة أن يحدث كل مانحب وألا يحدث كل مالانحب ، مايهم أن نعيش ونثبت لأنفسنا بأننا نعيش ٠ أردتُ أن تكون لي خيمة خاصة بي وهذا ما أغراني بالقبول ولا أريد أن أنجب الآن ، أعتبر نفسي غير متزوجة ٠

فرغتُ من إحضار الطعام، ودعوتها فامتنعتْ ولكنني ألححتُ فجلست بتردد وبدأت تأكل بخجل وهي ترنو إلي ٠

أريد أن تدخل الحمام لتغسل جسدها عشر مرات متتالية أن ترتدي ثياباً جديدة أن تتعلم القراءة والكتابة أن تعرف الساعة أن تستمع إلى الموسيقى وتتذوقها أن تشفى وهذا الوجه أن تعود إليه نضارته هذا الجسد يتخلص من سوء التغذية هذا العقل أن ينفتح ٠ تناولتْ الطعام بشكل جيد ثم جلستُ ساعتين متواصلتين أعلمها معرفة

الساعة وبعد ذلك نامت حتى الثانية عشرة ظهراً ، وعندما استفاقت أعطيتها درساً في محو الأمية لمدة ساعتين ونصف.

بدأتُ بالحروف الأولية والكلمات السهلة ورأيت لديها قدرة عجيبة على الاستجابة ٠ استمررتُ في مهمتي لمدة ثلاثة أشهر من شهر أيار إلى نهاية شهر تموز وكانت تأتيني في الأسبوع مرتين ، مرة يوم الثلاثاء من الواحدة ظهراً حتى السادسة مساءً، ويوم الجمعة من السابعة صباحاً حتى الرابعة عصراً. ومعظم الوقت كنت أمضيه في تعليمها القراءة والكتابة وقد رأيتُ نتائج جهودي خلال هذه الفترة الزمنية القصيرة حيث تجلس في خيمتها مساءً وتمضي ثلاث ساعات من الكتابة بشكل يومي متواصل وعندما تأتيني تقرأ نحو ثلاثين صفحة من أي كتاب يقع في يديها من مكتبتي ٠

اعتدت على هذه الزيارات ، بل أصبحت جزءا مني ، ومن الطرف الآخر فهي لاتغيب عن مواعيدها وتقول بأنها أيضا اعتادت على رؤيتي ولاتتصور أنها ستغيب عني حتى في أسوأ الظروف ٠

فور دخولها أخرجتْ حقيبة صغيرة قالت: رأيت هذه الحقيبة على الأرض بجانب الكراج . وفَتَحَتها ظهرتْ حزمة نقود مع إجازة سوق خاصة وبطاقة شخصية وبطاقة استخدام هاتف ودفتر صغير يحتوي على أرقام هواتف.

عددنا النقود المرصوصة بمطاط رفيع بني اللون وكلها من ذوات الخمسمائة ليرة وكان المبلغ كبيراً قلت لسماح : ماذا ستفعلين؟

قالت: لا أعرف

قلتُ: لو كنتُ أنا لأعدت الحقيبة كما هي إلى صاحبها.

قالت: لكنها سقطت منه وأنا وجدتها.

قلت: لكنه الآن مضطرب عليها وربما لا ينام وأنت تستطيعين أن تعيديها إليه دون أن تخسري شيئا ٠

قالت : لن أعيدها .
= أنا أقول رأيي وأنت تقولين رأيكِ لك حرية ما ترين .
= ولكن كيف سأعيدها .
= أن تصلي إلى قناعة أنك لابد أن تعيديها إليه لأنه صاحبها وقد سقطت منه سهوا ووقعت في يديك ، وأن قلبه الآن يرتعش في هذه الحقيبة ، ألا تريدين أن أن تعيدي إليه قلبه ٠
= من يعيد خمسين ألف ليرة بعد أن صارت له
= الذي يرى قلب صاحبها يرتعش بين يديه مع تلك الأوراق
= ولكنني وجدتها .
= وهو أضاعها
= أنا امرأة ، خذ أنت أعدها ٠

وبكت وهي تقذف الحقيبة كأنما تقذف عقب سيجارة قائلة : أنت تريد أن تجردني من طبيعتي حياتنا ليست معقدة هكذا نحن لا نهتم بهذه المسائل ففي النهاية سيغفر الله للبؤساء والعراة والمتسولين يمكن لي أن أخطف رغيفاً من المخبز أو أسرق غرضاً أنا بحاجة إليه مثل حذاء من محل فيه مئات الأحذية وأكون حافية نحن بسطاء فصاحب المحل لن يجوع بسبب حذاء والبيت الذي أسرق منه إبريقاً للماء ربما لا يستخدم ذاك الإبريق في السنة مرة ، ألن تجد صعوبة في إعادتها
= لا لأن عنوانه موجود على بطاقته ورقم هاتفه مكتوب على شهادة السواقة .

في الجمعة القادمة عندما دخلت سماح ، فوجئت برجل لأول مرة معي في البيت ، نظرت إليه نظرة سريعة ، وتراجعت ، صحتُ بها : سماح ، ادخلي ، إنه صاحب الحقيبة . عادت بعد أن كانت قد خظت عدة خطوات نحو الرجوع ، صوبت نظرة إلي ، ثم نظرت إلى الرجل مرة أخرى فقلت للرجل : هذه المرأة هي التي وجدت الحقيبة ٠ ثم ناولت

الحقيبة ليد سماح ، فتناولتها من يدي ومدتها على الفور ليد الرجل الذي شكرها وفتحها ، ثم نظر في محتواها وسحب عدة أوراق ، مدها لسماح ، لكنها رفضت قائلة : لا ، لاأريد .

قال : أعطيك هذا من طيب نفسي

قالت : أنا من طيب نفسي أقول لك بأنني أعدتها من أجل أن أعيدها وليس من أجل أن أقبض مقابل إعادتها ٠

سماح تدخل الغرفة بغيابي وحضوري فقد نسختُ لها من مفتاح الباب وعندما تأتي ولا تجدني، ترتب البيت وتضع ما لديها من نقود في الباب الخاص بها من الخزانة ثم تكتب لي رسالة ٠ في نهاية شهر تشرين الأول قررتُ السفر إلى دمشق لقضاء إجازة لأنني اعتدت على ذلك ، وبكتْ سماح لفراقي ، قلت بأنني أجّلتُ السفر في الشهور الماضية ولا أستطيع تأجيله مرة أخرى ، أشعر بحالة من الملل ، ولابد لي من بعض التغيير ٠ ونظرتْ إلي: ماذا ستفعل هناك ، كل شيء متوفر لديك هنا ، لا ينقصك شيء ، أرجوك أعدل عن قرارك.

- عشرة أيام فقط ، أحس باختناق ، سأعود وقد زاد شوقي إليك ٠

- لانلتقي كل يوم ، ولكن أشعر بأنني في أي وقت آتي سأجدك ، أشعر بأنك في هذه المدينة ، ولكن كيف سأطيق أن تكون بعيدا ٠

- فقط عشرة أيام ٠

ونظرت إلي وحاولت أن تبلع ريقها ولم تستطع : هذا سيكون مثل الموت بالنسبة لي كن حذراً في العاصمة عد بسرعة لن أفعل شيئاً لن أعمل سأتوقف عن الحياة إلى أن تجيء يوم الجمعة القادم .

- سبعة أيام فقط

- تكفي هل أستطيع أن أصبر كل هذه السنوات وأنت "كيف تطيق بُعاداً يا أيها الرجل".

وعانقتني ملأت وجهي بالقبلات وأذني بالكلمات والوصايا : متى ستسافر؟.

- في قطار السابعة مساءً.
- ومتى ستصل ؟.
- في التاسعة من صباح الغد.
- ومتى ستنطلق من هناك ؟
- في قطار السابعة من مساء يوم الجمعة القادمة.
- وستكون هنا في التاسعة صباحاً، ستراني أحضرتُ لك الطعام وأنتظرك. هاهي سماح تطاردني إلى دمشق،، تخترق المسافة تحتل كل زاوية من زوايا الفندق تبتسم لي في وجوه الفتيات ، هاهي سماح تنقذني من سلبيات حياتي وهاهي تمنعني من أشياء كثيرة كنت أفعلها بلا رغبة أشعر بمسؤولية تجاهها أذكر بأنها قالت لي: انظر البارحة طرقتُ باباً فلم يظهر أحد عندئذ دخلتُ وطرقتُ غرفة، ففتح لي شاب وكان في نحو العشرين من عمره وعلى ما يبدو طالب ومستأجر غرفة في الحوش، قال لي : ادخلي

تذكرتك وقلت : أريد نصيبي.

قال: هل أنتِ متزوجة؟

تذكرتك وقلت: متزوجة.

قال: كيف يتركك تتسولين وأنتِ صغيرة ؟.

تذكرتك وتراجعتُ إلى الوراء

تقدم إلي جمعتُ لعابي في فمي وأنا أتراجع تذكرتك خرجتُ من الباب ولم أقذف عليه اللعاب لأنه كان رجلا مثلك

تذكرتك وأقسمتُ لن أطرق ذاك الباب حتى لو أعطوني ذهباً.

إن لم تتذكرني، هل كانت ستدخل؟

ولماذا ذكري منعها من الدخول

ولا أدري أي شوق هذا الذي يجرجر ذاكرتي إلى العودة إلى الشقة إلى العمل إلى شوارع المدينة إلى يوم العطلة الذي أقضيه في البيت إلى امرأة هناك تدعى سما ح ٠ العاصمة جميلة ، هنا سأفكر بهدوء كل الوقت ملكي لا عمل لا ارتباطات ، أشعر بحرية عندما أكون هنا ، حرية أكثر من التي أعيشها وأنا في مدينتي ، هنا ترتفع عن روحي حالة الحصار الإجتماعي ٠

حاولت أن أعوّد نفسي على هذه الأسفار منذ سنوات ، يمكن لي أن أرى وجوهاً جديدة أن أشرب مياه جديدة أستنشق هواءً جديداً ، وعندما لا أسافر أشعر بلغم في شراييني ولا شيء ينقذني من ذاك الغليان والتوتر إلاّ تغيير المكان. ولكن هذه المرة على عكس المرات السابقة، هذه المرة أحس بأنني جئتُ لأعود وأعدّ الأيام ليأتي يوم العودة وهذه حقيقة تواجهني مهما أردت أن أخفيها على نفسي ، ولأول مرة منذ تعرفي بها تستبد بي رغبة جامحة في أن أحتضن تلك المرأة وأملأ وجهها بالقبلات ، تلك الرغبة التي كانت تأتي وهي في البيت تغسل أو تجلس أو تأكل أو تتمدد على الكنبة ، ولكنني كنت قادرا على مواجهتها ، كنت دوما أتذكر أبي الإمام في جامع القرية ، أتذكره وهو يوصيني ألا أرتكب المعاصي وأنا في المدينة مادمت قد اصررتُ على العمل وتكوين نفسي ، أتذكره وهو يعدني لأكون إماما للجامع من بعده ، أتذكر طفولتي وأنا أمسك بجلبابه في أوقات الصلاة ويأخذني إلى الجامع ، وأحيانا كان يدفعني إلى الآذان بصوتي الطفولي ، وكان يتباهى أمام الناس وهو يخبرهم بأنني سوف أكون إماما جيدا من بعده ، وعندما كبرت اكتشفت ميلي الشديد لقراءة الكتب ، وبدأت ألتهم مكتبة والدي الضخمة التي كانت في غالبيتها فقهية إلى جانب كتب أخرى نادرة مثل : طوق الحمامة ، وألف ليلة وليلة ، وشرفنامة ، ورسالة الغفران ، والمعلقات ، والفهرست لابن النديم

، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والأوائل لأبي هلال العسكري ، والكامل لابن الأثير الجزري ٠ وكان بين حين وحين يجلب كتبا جديدة وأذكر بأنه كان متعلقا بكتاب / في ظلال القرآن / ويقرأه باستمرار ويوصيني بقراءته حتى أنني أعدت قراءة هذا الكتاب ست مرات ، وفيما بعد علمت لماذا اختار لي أبي هذا الاسم عندما سألت أمي عن سبب تسميتي بهذا الإسم فقالت : شاء أبوك أن يسميك بهذا الاسم اقتداء باسماء الصالحين .. حتى يكون لك نصيب من أعمالهم الصالحة .

كان أبي عندما يأتي ذكر عبد الناصر يقول لنا ولأمي : عبد الناصر .. لولا أنه... لكان بإمكاننا أن نتحدث عنه بشكل أفضل ٠ وأيضا فيما بعد استطعت أن أملأ الفراغ الذي كان يتركه بعد : لولا أنه ... كان أبي يقول لي دوما : سوف تكون فقيها جيدا لأن من يقرأ جبل كتب الفقه هذا لابد وأن يغدو فقيها ذات يوم ٠ ويردد على أسماعي في المساء أمام أمي : إنه مثل فأر الكتب ٠ وكانت تأخذني في حضنها وتقبلني قائلة : تعال ياروحي ، سوف يكون فقيها كأبيه ٠ كانت تقول ذلك لشبهي الشديد بأبي ، كنت صورة مصغرة عنه وأحيانا عندما كنت أدخل البيت ويصدر مني صوت أو تصدر مني عطسة ينهض كل من في البيت وهم يظنون بأن أبي قد دخل وقد وصل به الأمر إلى أن فصّل لي جبة وعمامة وأنا في الرابعة عشرة من عمري فكان أصدقاء والدي يسمونني بـ / الفقيه الصغير / وهم ينظرون إلي بثياب الفقه ٠وقام أبي بتسجيل صوتي على أشرطة كاسيت وأنا أجوّد وأرتل القرآن بصوتي الطفولي ووزعها على سكان القرية وعلى أقربائي ، وقد علمتُ فيما بعد أن إحدى محلات بيع الأشرطة قد قامت بنسخ عدة نسخ وصارت تبيع لعامة الناس ، علمتُ ذلك عندما كنتُ أمشي صباح إحدى الأيام في السوق بثياب الفقه وأنا في السادسة عشرة من عمري وسمعتُ الصوت يصدر من إحدى الأماكن ، في البدء ظننته يصدر من إحدى محلات أهل القرية ، لكنني عندما

وصلت المصدر رأيت محلا لبيع الأشرطة ، ورأيت صورتي كذلك على أغلفة الأشرطة ٠ يومها عدتُ ألى البيت وأخبرت والدي بما رأيت فقال بأن صاحب المحل قد استأذنه بذلك منذ سنتين وهو الذي أعطاه الصورة ٠ ولكنني تمردت عليه وخرجت عن وصاياه عندما جئت إلى المدينة واستأجرت بيتا لأعمل وأخطط للتعرف على امرأة أتزوجها من بنات المدينة ، وأحيانا كت أحلم أن أتزوج من العاصمة ، وكنت أبتعد بتفكيري فأتخيل أن أتزوج امرأة من نيويورك ، كنت دوما أبتعد لأتعرف على ما لاأعرفه ولم تقف أحلامي عند حد ، وجلبتُ معي من القرية حبي للقراءة فصرت أشتري الروايات والكتب التي تستهويني ولم أعد أقرأ كتب الفقه ، حتى القرآن الذي كان برنامجا يوميا في حياتي لم أعد أقرأه إلا في أوقات متقطعة ، حتى الصلاة فقد توقفت عنها في السنة الماضية عندما شربتُ الخمر لأول مرة في حياتي ، لكن بقي حبي للكتب على ما هو عليه ، حتى أنني قلت لصديقي صلفيج ذات يوم : أنت تدخن كل يوم علبة دخان ، وأنا أقرأ كل يوم كتابا .

ضحك وهو يقول : أجل أنا أقذف علبة مُدَخَنة في القمامة وأنت تقذف كتابا مقروءا على الرف ٠ كانت مخيلتي دوما مفتوحة إلى أبعد مايمكن لها أن تكون مفتوحة ٠ وقد مررت بتجربة قاسية مع فتاة كانت موظفة بالقرب من مقر عملي ، كنت أراها كل يوم وهي تدخل وتخرج من الدائرة حتى تبادلنا الحديث وقالت لي عن إسمها وعن أهلها ، وعندما دعوتها لزيارتي في البيت ، لم تتردد ، كانت المرة الأولى التي تدخل فيها فتاة إلى بيتي ، المرة الأولى التي خلوت فيها بامرأة وأنا أرتعد وأحاول أن أقاوم أي شعور ينتابني نحوها ، كنت أحرص عندما تدخل ألا أمد يدي لمصافحتها وأنا أقول لها : حتى يأتي ولي العهد بكامل نقائه ٠

ولم أتردد من الذهاب إلى أبي وأقبل يديه من أجل أن يأتي ويخطب لي هذه الفتاة التي تعلقت بها ٠ قال أبي كلمته الأولى : هل هي محجبة ؟
قلــت : لا
قال : ألا تنظر إلى أمك .. ألا تنظر إلى أختك زلفى .. كيف ستُدخل امرأة بلاحجاب إلى بيتنا ، وماذا سنقول للناس أيها الفقيه الصغير ، هل أنستك المدينة في سنتين ما علمتك إياه في خمس وعشرين سنة ياقطب ، هل نسيت كل تلك الليالي الطويلة وأنا أسهر وأعلمك وأنصحك حتى يحين صلاة الفجر فآخذك معي إلى الجامع ٠
لقد رفض أبي بكل قوته أن يأتي فيطلبها لي ، ولكنني استطعت أن أقنع عمي وزوجته ليأتيا معي إلى أهل علياء ويطلبا يدها لي ٠ يومها قال عمي لأبي : أنت حر في أن تذهب معه أو لاتذهب ، ولكنك لست حرا بأن تفرض علي بأن أذهب معه أولاأذهب ٠ ولزم أبي الصمت حتى لايحتدم خلاف بينه وبين أخيه الوحيد في هذا العالم ٠
ولكن بعد سنة من تلك العلاقة والاتفاق على الزواج ظهرت عليها بوادر المرض وشيئا فشيئا اشتد عليها حتى أقعدها في السرير وقضى عليها بعد شهر واحد لتتركني وحيدا مع عالم من الذكريات ، حتى مجرد الذكرى ترعبني ، هل حقا يمكن أن يحدث كل هذا ، يا إلهي كم كنت أحبها ، وكم تعلقت بها ، ليس بوسعي أن أنسى ماحييت تلك النظرات البريئة التي كانت تنظرها إلي وهي تمضي بجانبي وتلقي السلام ٠ يومها تعرفت بصديقي الوحيد / صلفيج / الذي أدخلني إلى عالم الشرب لعلي أنسى ، صرت أشرب كل يوم وكان يطيب لي ذلك ، ولكني اكتشفت بأن الشرب يزيدها حضورا في ذاكرتي وكلما كنت أشرب كأسا كانت تزداد حضورا حتى أنني في بعض الأوقات كنت أهرب إلى الحمام فأستحم بماء بارد وأتناول قهوة حتى أصحو ويخف عن مخيلتي لهيب حضورها . أجل لقد كانت المرأة الوحيدة التي

استطاعت أن تترك في ذاكرتي كل ذاك الأثر البالغ الذي ليس بوسعي نسيانها ، لقد شاء الله أن يأخذ علياءه إلى عليائه ٠ لكن الآن أتت سماح ، سماح التي تثيرني بقوة ، تحرك كل ذاك البرود الذي كان بي نحو علياء ، وكم تهربت من الجري خلف هوى نفسي حفاظا على ذاك الماضي المقدس ، لقد بلغت الثلاثين و لم يسبق لي أن لمستُ امرأة ، وليست لدي رغبة ليحدث ذلك إلا إذا كانت زوجة ، لكن هل ستتركني سماح ، وإلى أي مدى سأكون قادرا على كبت رغبتي ٠ أعد الأيام حتى أعود لأول مرة في حياتي أشعر بمسؤولية تجاه الآخر الذي ينتظرني أنا الذي أضجر أي ثقل من هذا النوع حتى أهلي تركتهم لأتخلص من هذا الثقل ، لا يمكن لي أن أحتمل بأي شكل من الأشكال مَنْ يمنعني من فعل شيء أو يحجز حريتي ، سأترك الدولة كلها ، القارة كلها ، العالم كله سأفعل أي شيء للتخلص من هذا الذي يجبرني على العيش وفق طريقته التي تحجز حريتي، وهذا الذي يجعلني أتردد ألف مرة في مد خطوة نحو الزواج إلا بعد تعرفي العميق على المرأة التي أدرك بأنها لن تكون عبئا على حريتي ، أحياناً أتصور المرأة ثقلاً على عضلة القلب أخاف الأولاد الذين سيحجزون حريتي أفهم الآن بأنني أمارس أقصى حدود الحرية وأنني أكثر السكان حرية ، هذا هو الشعور الرائع الحقيقي الذي يفتح أمامي أبواباً مدهشة كل ساعة ،ودوما أردد في نفسي : شكراً لك أيها الرب على هذه الحياة المنعزلة الجميلة التي أعيشها .

لا أصدقاء لي لا يزورني صديق في السنة مرة ولا أفكر بزيارة أحد إلا صلفيج الذي يزورني أو أزوره نادرا ٠ ليس هناك أثرى من البقاء في البيت مع الموسيقى والقراءة والمرأة التي تلغم القلب بحضورها المتجدد كالشمس ، وأظن أن سماح بوسعها أن تكون تلك المرأة ، بيد أن كل الأبواب مغلقة نحوها بالنسبة لي ، وكل الأبواب مغلقة نحوي بالنسبة لها . كان صلفيج دوما يردد بأن علي أن أخوض كل

تجارب الحياة وأتمرد على كل المحظورات وهو يردد على سمعي قول أبي نواس :

" أكثر ما استطعت من الخطايا فإنك واجد رباً غفوراً "

وكنت دوما أقمع أي رغبة تجتاحني واقول : علي أن أكون قويا ولا أترك العنان لأهوائي لأنها عندذاك سوف تستبد بي ولاأدري إلى أي واد ستقذفني ، وأدرك جيدا بأن جبل الفقه الذي قرأته في مكتبة أبي يعينني على الجلد والصبر والمجابهة مع أشرس الغرائز البشرية حتى وهي في ذروة هيجانها ٠ لقد جلست مع نساء كثيرات هنا في العاصمة وتعرفت على كثيرات ، ولكن لم يكن ذلك ليتعدى حالة الجلوس في مكان عام على مائدة سهرة ولتضييع الوقت مع حسناء ، وفي النهاية كنت أتركها مع المائدة مثلما أترك ماتبقى من طعام وشراب وأمضي .

ومن هذه الحرية الذاتية استمد حبي للحياة والجمال والموسيقى . وهذا يعلمني بأن الحرية دوماً تكون في الأعماق ، الحرية الذاتية أهم من الحرية التي يهبها لنا الآخرون لا أحد يستطيع أن يحجز حرية أحد الحقيقية إذ أن الحرية كالشمس لا تُحجز ٠ لا أحد يستطيع أن يحجز ضوء النهار عن العالم نكون أحراراً عندما نريد أن نكون أحراراً ونلهث من أجل حريتنا بإخلاص ٠

في التاسعة من صباح يوم السبت وصلتُ البيت ولم أجد سماح ، هبط قلبي علتْ غصة إلى حنجرتي ، إنها تعرف موعد حضوري وتعرف بأنني في هذه الساعة وصلتُ الغرفة للتو لا بد أن أمرا ما قد حدث ٠ وكالصاعقة قفزت صورة / علياء / إلى ذاكرتي ، علياء التي تركتني ورحلت دون عودة ، هل رحلت سماح أيضا دون عودة ، هل لحقت بعلياء ٠

- كيف سيمر أسبوع لاأراك فيه ، سيمر بطيئا كالموت
- سيكون كاليوم الذي تنتظرين فيه هنا

- سأجيء كل يوم إلى البيت أشم رائحتك للحظات وأعود
- ساعود وأنا أحبك أكثر
- لتعلم أن المدينة كلها ستكون مظلمة إلى أن تأتي

ولم استطع الجلوس .. هرعتُ على الفور إلى الخارج تاركا الباب مفتوحا ، اتجهتُ صوب خيمتها كالمجنون، وقفتُ في المكان بعد نصف ساعة وأنا ألهث ، لم أجد خيمة واحدة ولكن هناك ما يشير إلى أماكنها على شكل دوائر بيضاء في الأرض ٠ اتجهتُ إلى الحي المقابل للساحة ، دخلتُ دكاناً تناولت زجاجة من مياه غازية وقلت : هل رحل الغجر ؟.

أجاب صاحب المحل : رئيس البلدية أصدر قراراً بترحيلهم من هنا البارحة ظهراً جاءت دورية شرطة من البلدية وطردتهم .

- لماذا ؟

- لا أعرف يقولن بأنهم يسيئون إلى مدخل المدينة بمظهرهم الغير حضاري ٠

وقعت كلماته على سمعي كالصاعقة وأنا أهتف بريق جاف : ألا تعرف أين ذهبوا ؟

- لا أدري أنهم غجر لا يستقرون في موضع ، البعض راح إلى رأس العين والبعض إلى تل أبيض والبعض الآخر إلى القامشلي ، ولكن أغلب الظن إنهم عادوا إلى بيوتهم لأنهم هكذا يفعلون كل شتاء وإن لم تطردهم البلدية ، هاهي تمطر ٠

وعدت إلى البيت تحت المطر الغزير خائباً كئيباً وأنا أدندن كالمسطول : سماح أين أنت الآن يا سماح لقد اختفى المشهد الجميل من المدينة ، المشهد الذي يسطع بالحرية ذاتها أكثر من أي مشهد آخر ، لكنه برد الشتاء ومطر الشتاء ٠

أي حزن سيعتقني من هذا القلق المدمّر ماذا سأفعل الآن؟ سماح لا أحتمل العيش بدونك ماذا سأفعل أرنو نحو المجهول لا طريق غير طريقك المجهول .
ونظرتُ إلى الخزانة فتحتُ باب سماح وقعت عيناي على نقودها وصورها وثيابها وعطورها ، ولم أستطع التهرب من جحيم الذكريات كل شيء في الغرفة يصرخ :
سماح.. كيف تركتِ هذا التائه في هذا الظلام ٠ كل شيء يذكرني بها، رائحتها تفوح من كل ركن .
مضى يوم السبت.. مضى يوم الأحد.. وكلما أسمع خطوات أقدام أنهض وأقول : هاهي تقترب.. إنها مستقبلي.. وعندما يُطرق الباب أنتفض وأقول : ها قد جاءت .. تكاد تدخل ٠ فقد ت الرغبة في كل شيء يمس الحياة ، لم أعد أغسل وجهي ولا أن أتناول الطعام ولا أحلق ذقني وعندما أدخل الحمام أتذكر بأنني كنت أستحم ليلة الخميس لها وعندما أحضر عدة الحلاقة أتذكر بأنني كنت أحلق ذقني صباحاً لتراني
فأهرب من ممارسة حياتي ٠ في صبيحة يوم الثلاثاء ذهبتُ إلى العمل بائساً مرتدياً ثياباً بالية توقفتُ عن استخدامها منذ سنتين أمشي كأني عجوز بائس استسلم لسطوة الزمن.
أمشي مترنحاً من الجوع والعطش والسهر والإرهاق أجلس ساعتين في العمل : لمن أعمل أي قيمة للعمل أي معنى للحياة؟
وأعود إلى البيت لا أسلّم على الجيران لا أكلم أحداً حرّمتُ على نفسي الابتسامة منعت على نفسي ارتداء الثياب الجديدة الغسيل الموسيقى مشاهدة التلفزيون حلاقة الذقن سماح كانت حياتي كلها وضاعت الحياة أي شيء بمقدوره أن يعزّيني هل أذهب إلى منطقة رأس

العين أين تسكن هل هناك حي خاص بالغجر لا أعرف شيئاً ولا أصدقاء لي هناك.

آه يا هوى الغجر
في هذا المساء يا قديسة
اهبطي كملاك،،
افتحي الباب للحظات
لأنهض وأعانقك يا قديستي
يا سيدتي وسيدة الغجر
الذين لا أحد لهم
في هذا المساء المظلم.. اهبطي
كقديسة
حاجتي إليك في أقصاها
حتى آخر غمضة عين
آه يا هوى الغجر
أتناديني في وهج الشوق
أتحترقين بهذا الشوق الناري
أتصرخين من عمق الألم
أتدخلين مملكة المجانين
الهزيمة تحتل كل عضو مرئي ولا مرئي فيَّ
أستسلم لشبحك يا جليلة الغجر
أعجز عن التصدي لهذا الغياب الصاخب
لماذا تصرخين في أذنَي
لماذا تبكين في الزاوية ولا تقتربين
آه يا هوى الغجر
متى يرحل الغجر ومتى يعودون

متى ينطفئ الشوق متى تقفين
خلف الباب كعادتكِ وتطرقين طرقة غجرية
متى تغنين لي أغنية غجرية
بصوتكِ الغجري الذي فقدته إلى السماء
متى سيعود كل ذاك الحضور
ويغتال هذه الأشباح التي تلتف حولي يا امرأتي الرسولة
آه يا هوى الغجر ٠

وبغتة أندفع شوق إلي نحو صديقي الوحيد صلفيج. لم أرغب في مقاومة هذا الشوق وقمعه، فنهضت وبعد قليل رأيتني أطرق باب صلفيج والبؤس يحتلني .

أبدى صلفيج كل مشاعر الترحاب خاصة وأنها من زياراتي النادرة التي طالما يدعوني إليها فقلت : كلماتك التي قلتها لي منذ أيام هي التي قادتني إليك ، الكلمات تفوح برائحة قائلها. عندما نظرت إلى شخص كان يقف إلى جانب صلفيج يحمل بيده دفتراً، بدأ صلفيج في تقديمه إلي: هذا صديقي فؤاد كان يقرأ لي قصة هو بطلها.

ثم قال له : هذا صديقي وجاري قطب .

وراح يصنع القهوة عندئذ قلت لفؤاد وأنا أتأمله: هل أنت كاتب؟ قال فؤاد: إنها قصة حقيقية عشتها وأردتُ أن أكتبها للذكرى.

وجاء صلفيج يقدّم القهوة وهو يقول: إنها فرصة لتسمعها أيضاً معي.

وأبديت استعدادي لسماعها قائلا ً: شكراً لأنك تطلعني على أسرارك أنا تشدّني الأحداث الشخصية التي يرويها أصحابها وأظنني بحاجة لأسمع شيئا يُخرجني مما أنا فيه ، وأظن ياصلفيج أن القهوة لاتؤدي هذه المهمة . ونهض صلفيج يحضر بعض الخمر قائلا : هاهو

دواء الهاربين من الآلام الكبرى ياصديقي ٠ صلفيج يشرب كل يوم ، يشرب أحيانا وهو يفتح عينيه صباحا ويلبث ثملا طوال الليل والنهار ٠

كان فؤاد قد قرأ جزءاً منها على صلفيج فأعدل الصفحة المطوية التي كان قد وصلها وشرع يعيد القراءة وهو يمد يده إلى الكأس بدلا عن الفنجان الذي لبث في مكانه :

منذ أسبوعين أتكاسل للذهاب إلى عيادة طبيب أسنان ليعالج سني الأمامي السفلي الذي يسبّب لي آلاماً حادة في بعض الأوقات الغير محددة فأحياناً يتوقف الألم لمدة أسبوع، وبغتة يهجم وكأن ألم العالم يسكنه ويا للهول عندما يكون الألم ليلاً.

هذه الحالة المتقطعة تشجّع كسلي وتقنعني في حالات اللا ألم بأنه سيشفى دون علاج. خاصة وأنني عرفت سبب هذا الطارئ على سني لعادة سيئة لازمتني طيلة الشهور الأربعة الفائتة، ففي منتصف شهر تشرين الثاني الماضي خطر لي أن أمضي الشتاء كله في البيت، وأعتبر نفسي في إجازة لغاية منتصف شهر آذار حيث يحلو الخروج ، وأي خروج ساحر في أي فصل عذب بعد عزلة دامت أربعة شهور متواصلة.

واستطعت إقناع نفسي بكل ما لدي من حجج ومبررات فأنا منذ الطفولة أعاني من آلام شديدة في أذني اليسرى أيام البرد وبسبب عدم المعالجة ومرور الزمن استعصى العلاج فأضطر في فصل الشتاء إلى استخدام أدوية للعلاج المؤقت لإيقاف الالتهاب وغسل مستمر في عيادة الطبيب ٠ هذه الحالة عندما تبلغ ذروتها تفقدني توازني فأظن بأنني أترنح في مسيري أو ثمة من يرفعني إلى الأعلى عندما أكون جالساً، فأتمسك بالكرسي وأصبح في حالة هذيانية لا تطاق. وما زال الطبيب يحذرني من المشي تحت المطر أو التعرض لهواء بارد أو دخول ماء لأذني هذه وينصحني بالراحة والوقاية في البيت أيام البرد. والمبرر

الثاني هو أنني لن أكون مستلقياً في الفراش لمدة أربعة شهور لأنني سأنجز قراءة مجموعة من الكتب التي جلبتها وأجّلت قراءتها، سأعيد سماع اسطوانات موجودة لدي لم أستمع لبعضها منذ سنوات ، أستمع إليها واحدة واحدة أكثر من مرة وهناك تسجيلات نادرة وذكريات قمت بها في مرحلة المراهقة، وأيضاً سأستمتع بالنظر إلى ألبوم صوري وصور الأصدقاء وأعود للاستماع إلى برامج الإذاعة ومشاهدة برامج التلفزيون ،، سأتحدث بالهاتف مع أصدقاء وصديقات من مدن وعواصم. سأحطم نظام حياتي الممل فمثلاً أتناول الفطور في الثالثة عصراً ، أو أبدأ السهرة في السادسة صباحاً ، أو أتناول العشاء العاشرة صباحاً ، سأجرب ذلك النمط من الحياة وأمارس كل ما لدي من طاقة للكسل. سأقوم برحلة طويلة إلى ذاتي لن أخرج من البيت أربعة شهور متواصلة لن أفتح الباب لأحد لن أستقبل أحداً ، سأقوم بهذه الرحلة المظلمة والمغلقة وقبل كل شيء ولأنني لا أتصور نفسي بدون "البزر" الذي اعتبره طعامي ومائي وكل زادي فقد اشتريت كيساً من بزر الجبس المحمص والقاسي ، عندها شعرت بأنني سأقوم بتنفيذ ما أريد دون أي حاجة أخرى .

لم أكن أعلم بأنني سأسرد كل هذه لأقول السبب الذي كان خلف هذا الجحيم الذي يتقد في سني، وقبل أن يفوتني القول فإنني أحمّل المسؤولية إلى هذا الكم الهائل من قشور البزر التي انفتحت رغم قسوتها بواسطة سنّين فقط ، سنّين أماميين واحد في الأعلى وواحد في الأسفل وما يثير دهشتي أن السن "السفلي" وحده كان الضحية وبقي السن "العلوي" شامخاً في "علوه" رغم مشاركته في استخدام كل حبة بزر من ذاك الكيس الهائل الذي أصبح منظره يرهبني.

في الساعة التاسعة من يوم الثلاثاء من الأسبوع الثاني من شهر آذار في السنة الجديدة خرجت من البيت متجهاً إلى عيادة طبيب أسنان.

ورغم وصولي الصباحي واعتقادي بأن العيادة ستكون فارغة بسبب وجود الناس في أعمالهم إلاّ أنني فوجئت بوجود نحو عشر نساء ينتظرن الدور ٠ جلستُ بجانب المدفأة أتصفح بعض مجلات إلى أن أذنتْ لي الممرضة بالدخول في الثانية عشر والنصف ، قال لي الطبيب بعد أن نظر فيه جيدا بواسطة ضوء بأن السن لن يُعالج لأنه ترك مكانه وهو بحاجة إلى خلع وإن رغبت فسيضع سناً بديلاً. لم يكن أمامي غير أن أوافق على أي شيء يمكن له أن يخفف عني الألم ، فخلعه وطلب أن أعود بعد خمسة أيام ليأخذ المقاس ٠ في هذه الأيام كنت أخجل من الحديث مع أحد كنتُ أشعر بأنني بلا أسنان وأتحاشى الحديث مع الآخرين كي لا يبرز مكان السن المخلوع، حتى صوتي تغيَّر بسببه.

القضية لم تعد قضية خلع سن كانت أعظم بالنسبة لي ، ثمة نقص في كياني وحتى يعود النقص سأشعر بالارتياح وبأنني إنسان غير ناقص بالإضافة إلى أن منظر موضع السن المخلوع من مكانه الطبيعي لم يكن يسيء إلى موضع السن وحده أو إلى الفك السفلي، بل يسيء إلى الفم كله والوجه كله والجسد كله ، ولذلك كنت أستعجل مرور هذه الأيام البطيئة والثقيلة كالجبال.

في صبيحة اليوم الخامس شعرت بالارتياح وأنني لن أنتظر صباحات أخرى لأجل إصلاح سيحدث لمنظري كله وعرفت أنه بإمكاني أن أسير في الطرقات وأدع فمي مفتوحاً ولن أخجل فالسن سيعود كما كان ٠ خرجتُ من البيت بفرح من خرج من السجن ، ولكن قبل أن يُخلى سبيله نهائيا عليه أن يمر بمكان ما لاتمام إجراءات الخروج ٠ وصلت بالقرب من ذاك الشخص الذي سيمهر على إخلاء سبيلي و فجأة هبط قلبي عندما رأيت إغلاق أغلب المحال ٠ إذن اليوم "أحد" يا لسوء حظي لكنه هو الذي وعدني في هذا اليوم ،، وواصلت الطريق إلى العيادة.. سيطرتْ الخيبة على مشاعري وأنا أنظر إلى الباب المقفول

المغلق نظرتُ إليه بؤس واعتراني شعور بائس بأن ذاك الباب لن ينفتح ثانية تراجعت بي خطواتي الكسيرة بخيبة وأنا شديد الحرص بألا أفتح فمي لقد انقلبت مشاعري كلها وأنا أسلك طريق العودة الخائبة إلى ذاك السجن .

انتظرت في البيت بمشاعر الاستياء والتوتر ، بدأ الانتظار يخنقني، كنت أرغب أن أتخلص من هذه الحالة لأمارس حياتي ، أما أن أمضي عمري متوتراً من أجل سن فهذا شيء مقرف وما يثير هذه المشاعر ويزيدها اشتعالاً هو إحساسي بأن حياتي كلها متوقفة على هذا السن وقبل أن أنتهي منه لا أستطيع أن أفعل شيئاً فمثلاً عندما أفكر بالسفر أو أرغب بلقاء امرأة أو استضافة صديق أقول : إذن ليحدث ذلك بعد تركيب السن الجديد ٠ أي سن لعين هذا الذي غير كل مسار حياتي ٠ أجل هذا هو الثمن الذي دفعته لقاء استمتاعي بتناول ثلاثين كيلو غراماً من البزر بشكل يومي متواصل ولا أتصور بأنني سأتناول حبة بزر واحدة أو أكسرها بالسن الجديد وإن اشتهيت البزر فسأحصل على بزر "دوّار الشمس" الطري وسأكسره بواسطة الأضراس. عادة أكل البزر اللعينة هذه التي أدمن عليها مثل التدخين منذ سنوات طفولتي لم أعد قادرا على تركها ، فالشاي مهما كان طيبا يفقد كل نكهته إن لم يكن معه صحن بزر مساء .

ركضت إلى العيادة عند الساعة العاشرة من صباح يوم الاثنين ولا أصدّق بأنني سأرى ذاك الباب مفتوحاً هل سيكون مفتوحاً؟ لقد كان مفتوحاً وعند ذاك فقط طمأنني وأطفأ اشتعالي. دخلت غرفة الانتظار وكالصواعق التي تقع فجأة وقعت نظراتي على وجه امرأة واستيقظتْ كل حواسي نظرتُ فيها وكأنني أعرفها أو التقيتها وكلمتها ولكن لا أعرف كيف هي الأخرى بادلتني النظرات المدهشة ذاتها وكانت في

الغرفة ثلاث نساء أخريات. جلستُ على كرسي ونسيتُ سني ، نسيت بأنني أنتظر دخولي لغرفة العلاج لقد أحدثت زلزالاً في داخلي استولت على كل تفكيري، إنني مرتبك من أثر صدمة النظرة الفجائية الأولى لم يعد يعنيني أين التقيتها وكيف ، وفي لحظة راودني إحساس بأنها ليست امرأة حقيقية ولا وجود لها وأنا الوحيد الذي أراها نسيت كل حياتي وأنا أنظر في وجهها بدهشة ألفتت كل الأنظار إلي ٠ استيقظتْ مشاعر غريبة فيَّ ولدتْ حواس جديدة ٠ لم تكن امرأة جميلة، كانت أكثر من جميلة . ويا لهذا الخجل الذي يستولي علي عندما أرفع نظراتي بين لحظات وأخرى فتقع على ذاك الوجه المبارك ٠لا أعرف ما فعلته بي هذه المرأة ولكن أعرف بأنها امرأة غير عادية امرأة ليست ككل النساء اللواتي التقيتهن ، ولم يسبق أن فعلتْ امرأة بي ما فعلته هذه المرأة. لم تنبس ببنت شفه لم تلتفت، إنها تجلس بحكمة واتزان يجعل الناظر إليها لايملك إلا أن يكن لها تقديرا ، وواضح أنها بمفردها ولا أحد يصطحبها إن لم تكن تنتظر خروج مَنْ معها من غرفة العلاج. وجهها مشرق ككتلة نور ، يفيض النور في عينيها الساكنتين الهادئتين وهي بكل تأكيد تضيء الغرفة وتجعل الانتظار مريحاً ، ترتدي ثياباً أنيقة باهظة الثمن توضح بأنها مرفّهة ومن أسرة أنعم الله عليها بنعمة الرفاه ، وخمنت بأنها في سن الثلاثين لأن الرفاهية تُظهر الشخص أصغر من عمره الحقيقي على الأغلب.

وبعكس ما توقعتُ، فقد خرج رجل من غرفة الطبيب ولم يحدّث أحداً فعرفت بأنه ليس معها وهذا ما كان يهمني ولكن في ذات لحظة خروجه هبط قلبي خوفاً من أن الدور سيكون لها ولكن الممرضة أشارت لواحدة من النساء الثلاث الجالسات بالدخول فاستولت عليَّ مشاعر الارتياح مرة أخرى ، وعندما رفعتُ نظراتي إليها، صدف أن وجّهتْ هي الأخرى نظراتها إلي في ذات الثانية فالتقت نظراتنا عندئذ ارتعشتْ

يداي واصطكت ركبتاي وبدأ قلبي يخفق بسرعة عجيبة وكأنني جريت ألف خطوة في لحظات ولمحتُ بأنها ارتبكت وأظهرتْ هذا الارتباك عندما سعلتْ وأخرجت منديلاً من حقيبتها السوداء الأنيقة لتخفي علائم الارتباك وبعد لحظات أخرى نهضتْ من الكرسي نصف نهضة وأعدلتْ في جلستها، هذا ما فعله بها وبي التقاء نظراتنا في ثانية خاطفة ٠ مددتُ يدي إلى مجلة قديمة ولم استطع التركيز فأعدتها إلى مكانها وبعد قليل رأيتها تقوم بما قمت به. ومرة أخرى علاني ارتباك. لا أستطيع أن أخفي مشاعري التي تبدو على سحنتي كمن عثر على شيء ثمين في غير المكان الذي يبحث عنه ولا يعرف إن كان سيستطيع أن يمدّ يده إليه أم لن تسنح له الفرصة ٠ الإنسان العظيم هو الكنز، لأن ما يستطيع أن يقدّمه هذا الإنسان يعجز عنه أعظم كنز، والمرأة الحقيقية هي كنز الرجل. وأنا ما بي ، ، لماذا تخطر لي هذه الأفكار.. تلك المرأة القابعة بجواري هي امرأة لا يمكن أن تكون لي ، ولكنها رغبة لاكتشاف مجهول، أفهم بأنني سأكون سعيداً عندما أكون بجوار هذه المرأة ، أفهم بأنني سأكون تعيساً ، أفهم بأنني سأكون مراهقاً ، وأفهم بأنني لا أفهم أشياء أخرى أكثر جدية وأكثر جنوناً.

- أدخلي سيدة كلوديا.

وقعت هذه العبارة الخالدة في الذاكرة كقطعة ثلج على عضلة قلبي ، فقامت الملكة "كلوديا" من مجلسها وانتفضت المدينة كلها لم أعد قادراً على التحمل على أن أكون جالساً وهي واقفة وأي كبرياء في عدم احترام امرأة مذهلة كهذه، عند ذاك أحسَّتْ بأنني نهضتُ فقط احتراماً لنهوضها، وتركتْ في مشاعري نظرة لن أحظى بمثلها حتى لو عشت مليون سنة ، نظرة أعترف بأن أي عبارة ستكون ناقصة إذا ما حاولتْ تعريفها ٠ ودخلتْ بخطواتها الواثقة إلى الداخل وهي تجرجر كل

حواسي معها ٠ تخيلتُ الطبيب يمد يده إلى فمها وأي رجل محظوظ هذا ليحظى بلمس هذه الكتلة المباركة ٠

بعد لحظات مدّت الممرضة رأسها من غرفة العلاج وأشارت لي بالدخول، نظرتُ إلى المرأة التي من المفترض أن يكون الدور لها ، فهي الوحيدة التي بقيتْ بعد أن تبيَّن بأن المرأة الأخرى لم تكن مريضة، عندما خرجت مع المرأة التي دخلتْ قبل "كلوديا"، وهي أيضاً أمام نداء الممرضة أظهرت بحركة من يدها بأن الدور لها. فقالت الممرضة بأن الطبيب هو الذي يطلبني فنهضتُ، كانت كلوديا مسترخية على كرسي العلاج تحت شعاع قوي موجه إلى فمها. قال الطبيب: نعم أستاذ..؟ وقبل أن أجيب وقد رفعتُ يدي إلى فمي حتى لا ترى كلوديا – التي تنظر إلي نظرات مركّزة– منظر السن المخلوع قال : تذكرت ٠٠ أنت فؤاد الذي سأركّب له جسراً ٠ ثم نظر إلى كلوديا وتمتم بعبارة لم أفهمها، لكنني عرفت بأنها عنتني بيد أنني منهمك في هذه الوضعية الساحرة منهمك في هذا العالم الكامل الذي يستلقي على الكرسي الطويل الذي يشبه السرير الصغير لقد أضفتْ عليه جمالاً غريباً حتى الطبيب بدا جميلاً وساحراً وهو يقف بجانبها كل شيء يبدو جديداً ومدهشاً كأشجار الورود المورقة في بداية الربيع. ونزلتْ كلوديا المباركة بشموخ كحمامة ، أشار الطبيب أن أجلس مكانها ٠ سرت نشوة مذهلة في عروقي وأنا أستعد للجلوس في ذاك المكان الذي جلست فيه كلوديا ، وعندما نهضتُ متجها إلى يدَ ي الطبيب ، تقدمت هي و جلستْ هي مكاني ٠ استرخيتُ على الكرسي كان أعظم وأنبل كرسي جلست فيه وكان كل خوفي وقلقي هو على تركي لهذا الكرسي. هل لي أن أتخيل إلى أي مدى أنا محظوظ في هذا العالم وإلى أي مدى ارتفعت درجة حرارتي وإلى أين ستأخذني هذه الخفقات التي تهزني، ولا أعرف ما فعله الطبيب ولكني سمعته يقول

العبارة المدمرة التي تأخذني من مملكتي : أخذنا المقاس أستاذ ، بعد ثلاثة أيام تعال لنركّب الجسر .

لأول مرة شعرت بأنني في مكان آمن ولن أعثر على مكان أفضل حتى لو جبت العالم كله ولم أنهض، كرر الطبيب ذات الجملة المزلزلة : بعد ثلاثة أيام في الدوام الصباحي سيد فؤاد .

نهضتُ وأنا أشعر بأنه مارس إرهاباً بحقي و مع نهوضي نهضتْ كلوديا المباركة وعادت تجلس على الكرسي ومع هذه العملية فتحتْ حقيبتها وأخرجت قطعتَي سكر ناولتْ واحدة للطبيب وناولتني الأخرى فتناولتها وأنا أحدّق في عينيها الزرقاوين بحسرة وألم، وخرجتُ من العيادة بإحساس مطرود بقيتْ قطعة السكر المغلّفة في ذات الكف حتى دخلت البيت وأخفيتها بين حاجاتي الخاصة، وفي البيت كتبت اسم "كلوديا" بحروف كبيرة على أوراق مقوّية وألصقتها على ثلاثة جدران في غرفة جلوسي: كلوديا القدّيسة.. كلوديا المدهشة .. كلوديا الجميلة.

وانتظرت الموعد لا لمعالجة السن ولكن لإحساس بأنني سأرى كلوديا مرة أخرى هناك.

في صبيحة يوم الخميس الخالد دخلتُ العيادة مرة أخرى ورأيت كلوديا المدهشة تجلس على الكرسي الذي جلستُ عليه المرة السابقة والمكان مكتظ بالنساء ورائحتهن وفور دخولي نهضتْ واقفة وقبل أن أبدي استغرابي لحركتها الغير متوقعة لا مني ولا من الجالسات دنت إلي كأن بينها وبيني معرفة قديمة وقالت بصوت لا يسمعه غيري : "ما في وقت، يالله بسرعة".

قلت بصوت لا يسمعه غيرها : "إيش في" ؟ قالت: "بعدين.. بعدين.. ما في وقت اطلع".

نبرات صوتها التي تصل أذني بالكاد تبيّن مدى توترها واضطرابها، ولكن منظرها وهي واقفة تحدثني يوحي باستقرار وأنها

تتحدث مع شخص يسكن بجوارها التقته صدفة في عيادة طبيب. إنها تملك قدرة عجيبة على الإيحاء الخارجي لما هو عكس ما هي عليه، ولا أدري أي عناد دفعني لعدم تلبيتها، فجلستُ على ذات الكرسي كأنني لم أسمع شيئاً، عندها شعرتُ كأن حريقاً سكنها، وعلمتُ كم عانت لتحافظ على اتزانها، ولبثتْ واقفة بين أن تعاود الجلوس وبين أن تخرج، مددتُ يدي إلى مجلة، تصفحتها وأشغلتُ ذهني بها، وبعد نحو خمس دقائق خرجتْ كلوديا بخطوات بطيئة موحية بأنها لن تبتعد أكثر من ثلاث خطوات عن باب العيادة. وعند ذاك أعدتُ المجلة وعلقت أنظاري في الباب وكلما ينفتح يهبط قلبي وأقول: ها قد عادت. بقيتُ في هذا القلق ساعة كاملة إلى أن فاجأتني الممرضة بأن دوري قد جاء.

دخلتُ والدوّار ينهش رأسي ويغلي معدتي ، رميتُ جسدي بثقل على الكرسي وأنجز الطبيب تركيب الجسر الذي كان جاهزاً بانتظاري. لقد كان أمراً بسيطاً بالنسبة لي أمام الاضطراب الذي احتل كل ذرة من جسدي. عندما خرجت صعقتني نظراتها الحادة.. بلبلتني.. كانت تقف على الرصيف المقابل للعيادة ، واصلتُ سيري مصعوقاً بنظراتها وأصررتُ على ألاّ ألتفت خلفي ٠ لقد اشتدّ عليَّ الدوّار وغلتْ معدتي وظننتُ بأنني فقدتُ الجاذبية ٠ جاءت نبرات صوتها كالطلقة إلى قلبي عندها لم احتمل فجلست أمام دكان لبيع الخردة ، لمحتها تقف عل بعد خطوات مني جف ريقي تحول لساني إلى قطعة خشب يابسة، جمعتُ قواي المتبقية ووصلتُ إلى السمّان المجاور طلبتُ علبة مياه ، عندها سرى الدم في عروقي واستعدتُ بعض توازني ٠ دنت المرأة إلي ومرة أخرى موحية لمن في لشارع بأنها التقتني صدفة وجاءني النداء مسموعاً بشكل جيد : أنا آسفة، لكن لماذا تفعل كل هذا ؟.

وأشارت إليَّ بثقة لأتتبعها على بعد عشر خطوات. فعلتُ ما طلبته دون رغبة وكأنني انفّذ أمراً ، سرتُ خلفها نحو نصف ساعة في

الشوارع الضيقة. وفجأة وقفتْ أمام بناية مطلية حديثاً وهي تشير إلي أن أتتبعها بالدخول. التقينا أمام باب شقة الطابق الأول وهي تتباطأ بفتح الباب وتدخل ، فلحقتها إلى الداخل لتغلق الباب بسرعة ٠

جلستْ على كنبة أنيقة الشكل ودعتني للجلوس بجانبها ولا أعرف لماذا رفضتُ الجلوس، ولكنها أصرت على دعوتها قائلة بتوتر : اقعد هنا ٠ استجبت أمام عصبيتها بخوف شديد من دخول أحد ووجهي يستفسر عن شيء قد يحدث فقالت بسرعة كأنها تطردني بأسلوب غير مباشر : هذا كل شيء رغبتُ أن نجلس معاً هنا وها قد حدث.. يمكنك أن تخرج الآن ولاتريني وجهك أبدا ، وأضافت : لأنني لم أكن مستقرة منذ أن رأيتك هناك ، هل كنت تريد أن تقول لي شيئاً عندما كنت تنظر إلي كل تلك النظرات ، هل تعرف بأنني خاطرت بحياة كاملة لتجلس أنت هنا في هذا الوقت الأقل احتمالاً من وقوع كارثة كهذه يمكن أن تدمرني ٠ وفجأة وبلهجة تحقيقية قالت بحزم: ولكن أين التقينا قبل الآن؟ قلت : أنا واثق بأننا التقينا ولكن فقدتُ التفاصيل ، ثم قلت: أجل الآن تذكرت أكثر أنا واثق بأنني دخلت هذا البيت وتحدثتُ معك بمفردنا ٠

- : أنا أيضاً تذكرت ، كنتَ ترتدي هذه الثياب. وغابت قليلاً ثم أحضرت لي كوباً من عصير /المنكا/ تناولته فقالت : ألا تذكر بأنك شربت عصيراً هنا؟.

وبالفعل فهذه ليست المرة الأولى التي تناولتُ فيها عصيراً في هذا البيت.. أشعر بأنني شربت عصير /المنكا/ قبل الآن واعتقد في هذا البيت.

قالت: هل تذكر أشياء أخرى؟.

وفي الواقع لم أتذكر شيئاً.

ومن جديد تذكرت بأنها "كلوديا" التي سحرتني كلوديا المستقبل، وعدتُ أنظر إليها ذات النظرات التي كنت أنظرها في العيادة.

ونهضتُ لأخرج، فنهضتْ معي إلى الباب، هناك مدّت فمها وبصمتْ قبلة على جبهتي وأعطتني رقم هاتفها وسجّلتْ على ورقة رقم هاتفي.

عندما تركتها كان كل شيء فيها يصرخ بدون صوت: ولكنك ستعود ، ولكنني حفرتُ بصماتي في عروقك. وهذا بذاته سبب لي قلقا ، إنها امرأة جديدة ، عالم جديد غامض أمد خطواتي الأولى إليه ٠

لقد علمتُ أن كلوديا ليست امرأة يمكن أن يلتقيها أي شخص ويذهب إلى غيرها، إنها المرأة المفقودة المرأة التي لا تظهر وإن ظهرت لا تختفي ، إنها تظهر لتحتل كل شيء لتهيمن على كل الحواس والفقرات أو أنها ترفض الظهور، عندما أقف أمام كلوديا فإنها تحتل كل ركن من أركاني وتهز كل ذرة من جسدي .

لم أذهب إلى البيت، عددت نقودي واتجهتُ فوراً إلى مطعم هادئ طلبت وجبة غداء مع بيرة وجلستُ أشرد بهذه المرأة وجلوسي في بيتها، حديثها، أدركت بأنني ارتكبت حماقة في ذهابي إليها كل إنسان بحاجة إلى شخص عظيم في حياته وهذا الشخص تكمن عظمته في غيابه وعندما يحضر يتحول إلى شخص عادي يفقد سموه بهذا الحضور فنبحث عن غيره، رغبت في أن تبقى هذه المرأة غائبة لتبقى سامية لأتذكرها في لحظات اليأس وأشعر بأن ثمة امرأة حقيقية جليلة في حياتي ثمة امرأة نبيلة على الأقل بالقرب في هذه المدينة التي أشعر بأنني غريب فيها رغم أنها مسقط رأسي . رغبتُ في أن تتحول إلى أسطورة وعرفت أن أجمل وأنقى الأشياء هي التي تفقد واقعيتها، مهما كانت الأيام التي عشناها رائعة فإن التي لم نعشها هي الأروع ، ومهما التقينا بأناس رائعين فثمة أروع منهم في الخفاء .

الحياة لا تمنح كل شيء دفعة واحدة وعظمتها تكون في هذه الاكتشافات المذهلة، لا أريد لهذه المرأة أن تفقد لا واقعيتها حتى لا

أضطر للبحث عن امرأة لا واقعية أخرى ، أروع اللحظات تلك التي لم أعشها، أروع القبلات تلك التي لم تخرج من فمي، أروع النظرات تلك التي لم أنظرها، أروع الأصوات تلك التي لم أسمعها، أروع الكؤوس تلك التي لم أشربها. أنا واثق بأن الماضي مهما كان رائعاً فإنه مات ولكن الحي هو المستقبل الذي ينبض ويشرق ويهل، إنه الأروع لأنه اكتشاف وهذه المرأة عندما تتحول إلى واقع ستقبل أيضاً أن تتحول إلى ذكرى إلى ماضٍ وتنتهي أريد أن تبقى لا واقعية كي لا تموت إنها المستقبل وكل ما يخطرُ وما لا يخطر لي أن يكون.

لدى عودتي إلى البيت جلستُ أشرد بما حدث معي وتوصلت إلى قرار نسيانها كأن شيئاً لم يكن وأول ما فعلته هو أنني مزّقت رقم هاتفها، مزقت الأوراق التي تحمل – كلوديا القديسة – كلوديا الساحرة – كلوديا الجميلة. أخرجت قطعة السكر قذفتها في سلة المهملات. ما كان يثير دهشتي هو شعوري بأنني سابقاً مارست هذه الأفعال، وهذا ما ضاعف قلقي وأدخلني في دوامة ودفعني في ذات الوقت لتحويل كلوديا منذ البداية إلى ذكرى قبل أن تتطور العلاقة وتتحول إلى واقع كبير لا أعرف عاقبته وفوق ذلك هذا الشعور المرعب الذي ينتابني كلما قمت بحركة تخصني معها فأشعر بأنني أكرر ذات الحركة وليس هناك أفضل من نسيان كلوديا إلى الأبد حتى أنقذها من الموت بالنسبة لذاكرتي٠ مضت أيام استطعت أن أشغل نفسي بما يمكن له أن ينسيني كلوديا ، كانت مهمة صعبة بيد أنني استمررت فيها ولكن لم يدم ذلك أكثر من شهرعند ذاك اتصلتْ بي كلوديا هاتفياً في الساعة الثانية ليلاً وقالت بأنها تشعر بالإثم تجاهي وتعيش في جحيم لا يطاق منذ شهر لأنني لم اتصل بها ، وهي تنتظر كل يوم أن يرن ذاك الهاتف فيأتي صوتي في أسلاكه إلى سمعها ٠ قلت بأنني قررت نسيانها لأنني لا أستطيع أن أتواصل معها وأتسبب في تدمير حياتها عند ذاك صارحتني بأن حياتها منهارة لأن زوجها توفي

منذ ست سنوات وتعيش في عزلة مع طفليها الصغيرين. شعرت بضعف وأنا أسمع أن تلك المرأة النبيلة التي حققت لي عالما من السعادة في لحظات لايمكن لي نسيانها تعيسة بسببي ، ومرة أخرى انفتح أمام روحي باب جديد يؤدي إلى امرأة جديدة ٠ هنا قاطعته وقلت : عفوا فؤاد ، إنه السؤال الذي أردت أن أسألك إياه عندما تحدثت عن دخولك إلى عالم امرأة جديدة في مقطع سابق وهاهو يعود إلي من جديد ، هل كانت لك علاقات حميمية سابقة بهذا الحجم ٠ وضع سبابته إلى الكلمة التي وصلها ونظر إلي يقول : أجل ياقطب ، لقد أحببت قبل كلوديا ثلاث نساء كن بذات الحميمية ، وأظن أن أثمن شيء يصادف حياة الرجل هو دخوله إلى علاقة حميمية جديدة مع امرأة جديدة يلتقيها لأول مرة ، ويحدثها لأول مرة ٠

قال صلفيج : يبدو لي بأنني الرجل الوحيد الذي تهرب منه النساء ، ولذلك يبدو لي بأنني الرجل الشقي الوحيد في هذه المدينة ٠ قال فؤاد : أبواب العلاقات الحميمية لاتنغلق في وجه أحد ، ولايوجد عمر ولا موقع اجتماعي ولا مظهر أما هذه الأبواب ٠ بالنسبة لي ياصلفيج عندما أعيش بدون علاقة حميمية مع امرأة أشعر ببرود روحي لايُحتمل ، أشعر بكل ثقل فراغ الحياة ٠ ثم عاد ينظر في الأوراق التي بين يديه ليقرأ قائلا :

قلت بأنني لا أريد أن أتسبب لها في مزيد من الانهيارات الأسرية، وهتفتْ تقاطعني :

لكنني أحبك.

قلت: ولكن ليبق هذا الحب ذكرى عابقة .

- أريد أن أراك

- أنا خائف

- هذه المرة في بيتك.

وشردت بعبارتها (في بيتك) التي لم تخطر لي من قبل، واتفقنا أن نلتقي في الساعة التاسعة صباحاً بجانب الجامع الكبير وأنا كلي أرتجف .

عندما أغلقتُ السماعة كانت الساعة تشارف على الخامسة صباحاً ثلاث ساعات متواصلة استغرق الحديث الليلي ولم أنم : منذ الآن سأرتب لهذه الزيارة..

هاهي كلوديا العظيمة ستأتي ، كلوديا اللا واقع تتحول إلى واقع كلوديا . وأعدت كتابة اسمها على الجدران والبراد والتلفزيون وعلى سماعة الهاتف وأزرار المسجلة، كلوديا هل تصغين لندائي. حلقت ذقني ثلاث مرات استحممت ثلاث مرات ارتديت ثيابي ثلاث مرات تعطّرت ثلاث مرات شطفت البيت ثلاث مرات رتبتُ الأثاث ثلاث مرات وخرجت من البيت ثلاث مرات وقفت في المكان في نفس الموعد بالقرب من باب الجامع الكبير ثلاث مرات وهلّت كلوديا المستقبل كالعيد ثلاث مرات صافحتني ثلاث مرات ومضيناً معاً إلى بيتي ثلاث مرات .

فور دخولنا هطلتْ قبلاتها علي عانقتني بقوة ولم تتركني حتى كاد يُغمى علي عند ذاك فقط تركتني وهي تهمس في أذني: من أجلك سأتحول إلى قطة شرسة وأدافع عن حقي في الوصول إليك. ومضينا إلى الداخل دون أن تبتعد عني وكأنني سأطير وفي الداخل بقيتْ ملتصقة بي وقذفتْ بي إلى الأرض. لتفعل بي ما تشاء ولن أقاوم هذه المرأة العظيمة إنها كلوديا الساحرة لن أنسى للحظة واحدة بأنها كلوديا المدهشة كلوديا التي يحق لها أن تفعل ما تريد وأنا تحتها كان بودي أن أنظر إلى حال وجهي المحلوق ثلاث مرات للتو من آثار قبلاتها العنيفة وعضات أسنانها.

- أنت كنزي ، نبعي ، آثاري ، تُحَفي ، سأنجب لك طفلة جميلة حتى تربطنا إلى الأبد، إذا كان الواقع يحظر علينا الاتصال فلن نستسلم سنفعل ما نحب هنا.
- أنتِ كل شيء أرغب في أن تنجبي لي طفلة تشبهك هذه أعظم ذكرى سنخلفها في الحياة عندما نرحل .
- سنتزوج ياحبيبي ، إن كل أديان العالم لاتمنعني عنك ، إن العبادة الكبرى هي تلك التي تكون عندما نتزوج ، لماذا تتحدث عن الرحيل ياحبيبي وأنت في حضني ، لماذا تتحدث عن الرحيل ونحن في هيجان الحياة وبدايتها قل لي كم هو عمرك؟.
- دخلتُ الخامسة والعشرين للتو.
- أنا في السابعة والثلاثين ولي ولد وبنت ، الولد في السابعة والبنت في الخامسة.
- لم أجدهما في البيت.
- كانا في المدرسة.
- في هذه اللحظات العظيمة أشعر بمتعة الحياة وأنه لا شيء أثمن من أن تتاح للإنسان فرصة ليعيش خمسين سنة مثلاً، ولكن عندما يبلغ سن اليأس يشعر بأنه لم يعش سنة واحدة سيرعبه الموت لأنه سيأخذه من أعظم هبة أعطيت له. في لحظات اليأس لا أخاف الموت ولكنه يرعبني في اللحظات العظيمة لكن ما دمتِ أنتِ معي فإن الحياة ستكون أكثر روعة لأننا عندما نلتقي لا يملك الموت إلاّ أن يكون بعيداً ٠

وبدون أن تقول شيئاً قامت من الفراش إلى مكتبة الاسطوانات، انتقت اسطوانة وضعتها في المسجلة، لفّتْ منديلاً على خصرها سحبتني من كتفي وبدأت ترقص رقصاً شرقياً عذباً وعندئذ ناديت أمي التي حبلت بي ذات يوم لتطبع قبلة على خد كلوديا ، وهي ترقص رغبتُ فيها مرة أخرى ، هل يمكن لي أن أكتشف ما هو أهم من هذا الاكتشاف في عالم

كلوديا الساحر، وحملتها على يَدي كطفلة، وضعتها على الكنبة وبدأتْ كلوديا تنشج وهي تُصدر آهات: حبيبي.. أنت لي وأنا لك.. ستكون أيامنا كلها حافلة.. هل ستعدني بأنك ستكون لي سأعطيك كل شيء ، يمكن لنا أن نقضّي أياما رائعة في مدينة أخرى ٠

- والأولاد ياحبيبتي
- سأضعهما عند أهلي ٠٠ لن أدعك تنفق شيئا ، لدي ما يكفي لقضاء أسبوع في أي مدينة نختارها ٠
- إذا حدث ذلك فسأتكفل بكل شيء
- أعرف أن وضعك المالي لايعينك للمستوى الذي سنكون فيه في ذاك الأسبوع

- ولكنني سبق أن عملت أقسى الأعمال من أجل أن أكون بعيداً عن هذا التفكير وإذا جعت مستعد أن أقوم بأي عمل شاق حتى لا أتسول أنا أحب أن أعيش الحرية وبدون الحرية تكون الحياة سخيفة ، أفهم بأنك ستبعدينني عن حياتي عندما تهبينني أشياء ليست لي، وستغتالين تاريخي وسنوات الكفاح من أجل أن أكون حراً وأنا لا أريد غير أن أكون معك أمارس خطيئة وأستمتع بها ويمكن أن تخرجي ولا تفكري بلقائي مرة أخرى، أستطيع أن أقدّم لكِ ما تشائين من هدايا ومن قطرات القلب.

- هذه طريقتك في التفكير وأنا سمعتها شكراً لأنك تفكر بطريقتك، أنا أعيش هذه الحالة معك، عطائي لك يحقق لي سعادة عندما يحقق لك سعادة وأنا لست مستعدة لأن أسبب لك تعاسة وتنعكس التعاسة علي لأنني أريد أن أهرب من التعاسة أظنني قريبة من تفكيرك ولا تنس بأننا ما نزال في اللقاءات الأولى وإذا استطعنا أن نلتقي بعد الآن ستوضح لنا اللقاءات ما إذا سنقترب أم سنبتعد، بالنسبة لي عندما لا أكون منسجمة معك لن أدعك تراني وأريدك أن تكون مثلي أنا أهبك ما سأقدر عليه وأنت ستهبني ما ستقدر عليه سنعيش حياةً روحية معاً قبل أن يدركنا

الموت سنعيش ساعة روحية في عزلة سنتعرف فيها على تفاصيل طفولة فقدناها إلى الأبد، ليست الروح وحدها تعانق الروح ولكنه الجسد الذي ينفخ روحاً في الروح، يحرك الروح وليس الجسد وحده يعانق الجسد، لكنها التضحيات وساعات الشوق هي التي تشعل الحواس عند ذاك عندما أشعر بأنك لي وحدي وأنني لك وحدك بكل ما نملك وما نفكر وما نتخيل حتى لو عشت مع غيرك وأنت ذهبت في طريق غير طريقي لكننا ندرك عند مفترق الطرقات بأن ثمة لقاءً مذهلاً سيتم بيننا، وعندما نلتقي سنعيش تلك الحقيقة بروحينا وجسدينا ٠ أرفض أن أفتقد أشياءً سامية فيك ، في علاقتنا السرية معاً التي سنفتقدها أريد أن أكون هنا ونظراتك تمتد إلى كل أجزائي وأعضائي أتمدد على الكنبة وأدرك بأن حضوري ينعش أحب رجل إلي.. أريد أن تستمتع بالنظر إليَّ لا تخف نحن أبناء الحياة وهي غنية بنا، الحياة هي نحن الناس الأحياء عندما تخلو من الناس الأحياء سيسقط عنها هذا الاسم وهذا المعنى.

- أنتِ لا تستطيعين إقناعي بنظرية الإخلاص.

- أنا لا أعني الإخلاص وأنت دوماً تفهم ما لا أعنيه هل تظنني حمقاء لأصدق أن الإنسان يعيش إلى الأبد وأراه يموت كل ساعة.

- أقصد لا تضعي فيَّ كل حياتكِ لا تدفعي علاقتنا إلى ذاك العمق.

الإنسان الذي تمر عليه مراحل يغيّر فيها معتقده و دينه و بلاده و أفكاره ليس بالعسير لديه أن يغيّر شخصاً بآخر ما دام يغير أفكاراً بأخرى، بلاداً بأخرى، ديانة بأخرى. أنا أمقت القسم والعهود والمواثيق.. أريد أن أعيش الليلة في هذه المدينة وغداً في مدينة غيرها.

استطاعت المرأة أن تغير نمط حياتي وتجعل الاهتمام بها شغلي الوحيد ٠ كلوديا التي جاءت من المجهول وفتحت أمام روحي مدينة سحرية تقول: لا شيء بأيدينا في هذه القضية ولكن نحن نمارس فعلاً حقيقياً لذيذاً عندما نلتقي هذه هي الحقيقة الوحيدة التي أؤمن بها. لا تفكر

بشيء آخر غيري، لا تشغل ذهنك بشيء آخر غير لقاءاتنا وما يمكن أن نقوم به في الغد بسرية تامة دون أن يرانا اللا مرئيون.

ليس بوسعي إلاّ أن أصغي إلى ما تقوله لي هذه القديسة: الرأي ما تريه يا كلوديا والشور ما تشوريه والقول ما تقوليه والقرار ما تقرريه، فكل ما يصدر منكِ لن يكون ثمة أصوب منه أنتِ الصواب لا نقص فيكِ أنت يا كلوديا امرأة خُلقت كاملة امرأة غير ناقصة.

لم يعد يهمني من الحياة غير ما منحتني إياه، هذه هي المرأة العظيمة التي كافحتُ من أجلها ووصلتها مبكراً لن أفكر للحظة واحدة بالزواج وهل يمكن للزواج وأي زواج إلاّ أن يأتي على حساب هذه الحياة الثرية وعلى حساب حريتي الكبرى التي أمارسها إذن أي مجنون أنا عندما أدخل كالمتسولين بيتاً فأتسول يد ابنتهم فيضعون أمامي شروطاً فوق طاقتي حتى يتكرموا ويوافقوا على أن أجلب ابنتهم لتحجز لي حريتي مع أفراد أسرتها الذين سيترددون كل يوم لزيارة ابنتهم وتحطيم كل برامج حياتي وهذا كله بدون أي لقاء سوى إضاعة حياتي والتفرغ لما تطلبه هذه السيدة وأولادها الذين سيأتون ويفسدون كل حياتي ويرمونني في سجن طلباتهم وإشكالا تهم . أي مجنون أنا لأنفذ ما يقترحه علي أقربائي إنهم يحسدونني على حياتي العظيمة ويريدون أن يحيلونني إلى رجل فاشل يعاني صعوبات مواصلة العيش في حياته.

كان ذاك اللقاء الحميمي الثاني بكلوديا وخرجت ، لكن بقيت الاتصالات مستمرة بيننا ، فكل ساعة أكون فيها في البيت تهتف لي وأهتف لها ، وفي الليل أغفو وكلماتها في سمعي ، تغفو وكلماتي في سمعها .

عند الساعة السادسة مساءً اتصلتْ بي كلوديا وقالت بأنها ترغب أن تراني إذا كانت لدي رغبة الذهاب إليها هذه الليلة .

قلت لها بأن الحب بمقدوره أن يجعل من الألم نشيدا للفرح ، ومن الخريف ربيعا متفجرا ، لاشيء بمقدوره أن يقف في وجه الحب إذا وقع في قلبين ٠ أجل ياكلوديا سنستطيع أن نحيل أوقاتا باردة تعيسة إلى أوقات تنبض بكل ذرة من ذرات الحياة ، نستطيع أن نتغلب على أي شعور من مشاعر اليأس عندما نتعانق ونترك كل شيء في العالم خلفنا ٠

وكانت لدي رغبة قوية في أن أمضي ليلة كاملة معها في بيتها، هيأتُ نفسي لهذه الليلة وعندما بلغت الساعة الثانية عشرة والنصف هتفتُ لكلوديا وقلت بأنني قادم فأوصتني أن أكون حذراً في الدخول. عندما وصلتُ البيت رأيتُ الباب مفتوحاً.. مددت خطواتي دون أن أضغط على الجرس.. كانت كلوديا المذهلة قد هيأت كل شيء وبدا البيت أعظم بيت رأيته في حياتي.. لقد صنعت أنواعاً غريبة من الأطعمة وأحضرت أنواع الشراب وكانت تبدو في ذروة السعادة وهي تهيئ لي شقتها ومائدتها وسريرها وتضيء أمامي كل ما هو غامض بالنسبة لي في حياتها ٠

وهل يمكن لي أن أفي هذه المرأة القليل مما تقدّمه لي. وخطرت في رأسي أفكار غريبة فمثلاً فكرت بفعل شيء يثبت لها بأنني سأضحي بأشياء غالية من أجلها إذا طلبت مني ذلك لأن حياتي هي التي صنعتها ، صنعتْ حياةً من موتْ ٠ أجل لقد كنتُ ميتاً فأحيتني كلوديا النبيلة ، أحيتني بحبها وقلبها أحيتني بحياتها ولا أعرف ما فعلته بي الكأس الأولى من هذا الشراب المنعش وبدأت أتحدث بكلمات لم يكن لي بها عهد ، لقد قلت ما عجزت على قوله في المرحلة السابقة وكلوديا تحولتْ إلى إنسانة رقيقة أكثر من أي وقت آخر بفعل الكأس الأولى.

- أحس بأنني مقصرة تجاهك يا حبيبي.

- وأنا الذي أشعر بأنكِ تمنحينني أكثر مما استحق.

وأخذتني إلى غرفة النوم وهي تلتصق بي ، لقد كان أعظم سرير شاهدته في حياتي هذا السرير الرائع الذي تنام عليه كلوديا الرشيقة وهذه الوسادة الساحرة التي تستقر تحت شعرها الذهبي .

وقالت : هذا هو سريرنا يا حبيبي هل أعجبك

- كلوديا العظيمة إنكِ تحييني بكلماتك هذه

واستلقينا على السرير: كلوديا هل تكرهينني؟

- لتعلم وأنا لستُ بحاجة لأن أكذب فإنه لم يطأني رجل قبلك غير زوجي ولم يكن ليحدث هذا لوكان حيا ، لم يكن ليحدث حتى لو وقع بيننا ذات التعارف لأنني لم أكن أسمح لنفسي أن أجمع بين رجلين ٠ إن المرأة التي يهون عليها أن تخون زوجها يكون من اليسر لها أن تستبدل عشيقا بآخر ، ولا أعلم كيف يقبل رجل أن ينام مع سيدة متزوجة وهو يدرك أنها بعد نصف ساعة ستذهب إلى حضن زوجها ٠أنا يهمني أن أكون صادقة كن واثقاً من هذه المعلومات وأنا أعلم بأنك كنت قبلي على علاقات عديدة مع نساء ، أنت لم تقل لي هذا ولكن أي امرأة في العالم ومهما كانت ساذجة فأنها تعرف بأنها أول امرأة دخلت حياة الرجل الذي معها أو ليست أول امرأة. عند ذاك وفي الفراش سيبدو كل شيء واضحاً بالنسبة لإحساسها، فإن الأنوثة لا تخفي شيئاً عن الأنوثة.

في البداية عندما التقينا في عيادة طبيب الأسنان ، شعرت بأنني وجدتُ شيئاً فقدته منذ سنوات بدون أن أعرف ما هو وبدون أن أعرف بأنني كنت فقدته أو أبحث عنه فقط عندما رأيتك اكتشفت هذا ولذلك كنت في لحظات نظراتي إليك أخاف أن أفقدك مرة أخرى وإلى الأبد وكنتُ قلقة ، وعندما جاء دوري عرفتُ بأنني لا بد أن أخرج بعد أن ينظر الطبيب في أسناني فقلت له بأن يدخلك لأتعرف إن كنت ستعود للعلاج أم هي مرة واحدة فمعظم الذين يدخلون عيادات أطباء الأسنان لأول مرة يكررون العودة مرات عديدة ولأيام حتى ينتهون.

قلت له بأنني لستُ مستعجلة ، ويمكن أن يدخل الشاب الذي يجلس في غرفة الانتظار لأنه يبدو مستعجلاً وينظر كل لحظة في ساعة الحائط. وعندما عرفتُ موعد عودتك أحسستُ بأنني ظفرت بكنز لذلك عبّرتُ عن فرحتي حينما أخرجتُ قطعتَي سكر أعطيت واحدة للطبيب الذي كان سبباً في عثوري على الكنز، وواحدة لك لأنك كنت الكنز. بعد ذلك أتيت في موعد حضورك أردت أن أتأكد من مشاعري لبعض الشكوك التي خطرت لي. وعندما دخلتَ بيتي في تلك الساعة العظيمة تأكدتُ بأنك كنز حقيقي وشعرتُ بارتياح عميق لا يمكن لك أن تتخيّل حجمه. رغم كل ما لدي من إمكانات جيدة للرفاهية كنت أشعر بأنني يتيمة دون رجل ، وكنت أحسد تلك المرأة الغارقة في الفقر ، ولكنها تمسك بيد زوجها وهما يتناولان صندويشتَي فلافل على قارعة رصيف .

وعند هذه الأمواج الملتهبة من الركض حتى خلف رائحتك وثيابك ونبرات صوتك في آخر الليل على الهاتف، كل الأشواك التي تراها تتحول بالنسبة لي إلى ورود على شجرتك العابقة.. لا أرى فيك إلا ما هو ساطع لا أسمع منك إلا ما هو نقي. عند خطوات البعد أراني أقوى مخلوق في سبيل الوصول إليك وهاهنا يولد كل هذا الضعف الذي تراه ينسم على أعشابي في مملكة حضنك البهية.

أأقول لك أشياءً أخرى مثلاً أريد أن أتحول إلى مزهرية لأكون دائماً بالقرب من رأسك عندما تنام حتى لو كانت مزهرية بلا حياة.

أأروي لك عن الحلم الذي أراه في ليالي الشوق وأنت تدخل ببيتنا وتطلبني من أبي وبعدها أقول لنفسي: أي قلب يحمل ذاك الذي يمنع لقاء الإنسان بالإنسان أي دخول هذا وأنا أراه يخرج عن دينه وعن نفسه هل يستطيع أن يطفئ شعلة الحب وإن أطفأها هل سيكون قد حقق دينه أم خرج عنه ، هل سيكون قد حقق إنسانيته أم خرج عنها.

- آه يا كلوديا لماذا عندما نحب نفكر بالهرب إلى بلاد الحب والعدل ، أهم أغبياء أم نحن ، أهم بلا دين أم نحن ، أهم بلا قلوب أم نحن ٠

- ننادي بالحب والعدل لكن أين نجدهما ، الإنسان يمارس قناعاته في كل الأحوال سواء في السر أو العلن ، أظن أن الإنسان أنبل من أن يُمارَس هذا الاضطهاد عليه.

- ولكن ستبقين مشرقة يا كلوديا رغم كل هذا الألم، سيبقى وجهك مشرقاً بنور الحب. إن نظراتك إلي هي التي تسحرني ، من أين تأتين بكل هذه النظرات.

- عندما أكون معك لا أملك إلاّ أن أنظر إليك لكي أعوّض ما فاتني وأنا بعيدة.

أجل يا أيتها القديسة ، أرغب في أن أشرب كأساً ملكية أخرى في السرير ٠

نهضتْ كلوديا وناولتني الكأس المقدسة: خذ يا نور عيني اشرب، الكأس والمرأة يطيلان العمر.

- أنتِ تطيلين العمر يا حلوة الروح.

- قل لي كل شيء ، أرغب في أن أعرف كل شيء عنك.

- ماذا أقول في هذا المكان ، ما أزال أحاول أن أقنع نفسي بأنني سعيد ، ولكنني اتعس رجل في العالم، معاناتي لا تنتهي أعاني حتى من قطرة ماء أشربها ، حتى في هذه اللحظات العظيمة أحاول أن أخفي معاناتي يبدو بأن ألمي لن ينتهي ما دمتُ أتنفس أنا حزين يا كلوديا ولكن معكِ سأكتشف حياة أخرى سأدخل إلى مرحلة جديدة مثيرة في حياتي.

حياتي بدون مسؤولية بدون قضايا بدون أي شكل من أشكال الارتباط ٠ أنا رجل بلا قضية وهذه هي قضيتي الكبرى التي أكافح

بسرية تامة من أجلها ، أكافح في سبيل لا قضيتي ، وهذه قضية القضايا. لكن أنتِ يا كلوديا تسرقينني ٠ الآن صرتُ أهتم بكِ، مذ تعرفتُ بكِ لم أطأ امرأة غيركِ وهذا يؤلمني لأنني أمقت الالتزام أنتِ مشكلة جديدة أعانيها وأحسب لها أقلق حساب ٠ أشعر بما يشعر به الطير عندما ينظر إلى الطيور في الفضاء وهو قفيص ساعة الشفق، هل تؤلمك كلماتي ، لكن قبل أن أفقد اتزاني وأفقد صوتي وذاكرتي يهمني كثيراً أن أقول ما لم أستطع قوله قبل الآن.

- وهل تظن بأنني أعيش وأصبّر نفسي لغير هذه اللحظات الهاربة، لكن يا كنزي، لستُ راضية عن نفسي أحس بأنني ألوث شيئاً مقدساً لا يجوز لي تلويثه.

أعرف أن تربيتي الدينية منذ سنوات الطفولة الأولى هي التي تفتح جرحاً من هذا النوع، أنا سعيدة معك خاصة في هذه اللحظات لكنها سعادة غريبة لم يسبق لي أن عرفتها ، هل هي سعادة الكآبة آخر حدود القهر والبؤس. لا أعرف لماذا أحس بأنني لن أكون راضية عن فعلٍ إلاّ إذا رضي عنه المجتمع والأسرة والكنيسة أيضاً.. فهل ما أفعله يُرضي هؤلاء، أم يرضيني لوحدي فحسب، هل ستعرف ما لا أريد أن أعرّفه بالبحث عن الكلمات.. هل ستعرف شيئاً لم أقله لك..

- أجل يا كلوديتي العظيمة،، أظنني لستُ أحمقاً ألا تتذكرين بأننا تبادلنا أفكارنا في مكان غير هذا ، أين يا كلوديا لن تستطيع قوة العالم أن تقنعني بأننا لم نلتق قبل الآن.

- لن أدع فكرة تشغلك عني في هذه اللحظات المباركة كن معي ولي وحدي خذ كل ما تريد مني وامنحني كل شيء أنا خائفة من الموت بدرجة لا تتصورها.

- فكرة الموت التي تسيطر منذ سنوات الإدراك تقلق أكثر من الموت بذاته.. الآن فكرة الموت ترعبك، وليس الموت.. لأنكِ لستِ ميتة..

لأن الموت عندما يقع لن يرعبكِ بكثافة فكرة الموت المسيطرة منذ سنوات. أنا تقلقني فكرة موت الآخرين عندما أكتشف شخصاً رائعاً.. تسيطر علي فكرة ما إذا كنت سأحتمل نبأ موته إذا صدف ومات. بالنسبة لي فكل شيء سينتهي في لحظات عندما "أموت" لكن الذي لا ينتهي في لحظات هو موت أقرب إنسان إلي الذي سيأخذ كل شيء جميل في حياتي معه إلى ذاك الركن المظلم.

- هل ذاك الشخص هو كلوديا.

- هذه مهمتكِ في أن تعرفي إن كان هذا الشخص أنتِ أو غيركِ.. لكن هذه اللحظات السحرية هي أثمن لحظات عمري.. أعترف بأنني أعيش الآن وأستمتع بكل لحظة معكِ، أنتِ تسحرينني بنظراتكِ السحرية هذه.. لا تمنحيني كل هذه النظرات دفعة واحدة.. دعي منها لما سيأتي. لماذا تنظرين إليَّ هكذا.. أغمضي عينيكِ مثلاً لأرى شكلهما لأنظر في عينيكِ المغلقتين.. وأنتِ لا تنظرين إليَّ. من أي قديس ورثتِ هاتين اللؤلؤتين. عالمكِ الحافل هذا هو عالم سحري ولو لم يكن سحرياً لما استطعتُ أن أمضي ساعة واحدة معكِ.. هل تعلمين بأنني لا أستطيع أن أمضي ساعتين متواصلتين وأكون سعيداً فيهما إلاّ إذا سحرني البقاء سحرية حضور الشخص الذي أكون معه. وإن لم يكن سحرياً.. سأضجره في لحظات.

عندما دخلتُ العيادة لأول مرة.. وقعت عليَّ نظراتكِ السحرية هذه.. فعرفت بأن كل ما فيكِ سيسحرني.. حتى صوتكِ المدهش هذا الذي يبدو لي بأنني أدمنته.. ومشيتكِ.. وطريقة جلوسكِ على الكرسي.. وثيابكِ. كنت أعلم بأنني أمام امرأة غير عادية.. وهذا ما أربكني.. خفتُ أن أفقدكِ بعد نصف ساعة على الأكثر. أنا خجول أكثر مما يخطر لك لم أكن أجرؤ على أن أبادركِ الحديث في أي حال من الأحوال أجل يا

كلوديتي العظيمة هذا ما فَعَلَته بي نظراتك الأولى.. نظراتكِ السحرية في ذاك المكان السحري.

تأتي امرأة واحدة.. من بين ملايين النساء.. تولد امرأة واحدة بين ملايين النساء لتؤكد بأنها تخبئ عالماً بين ثدييها.. إنها تستطيع أن تنفخ في عالم جديد يظهر لأول مرة ولأول رجل في تاريخ الكون.. امرأة جاءت لتسمو وتجرجر الرجل من شعره إلى علوها.. أعترف أمام الله بأنني أحب كلوديا.. كلوديا.. كل حرف من حروف اسمها يضيء في وجهي.. عندما أكتب اسمها تورق أصابعي.. عندما أهتف باسمها يرطب لساني.. وعندما أنظر في وجهها النوراني تشتعل مصابيح الكون في عينَي.

في صبيحة يوم الجمعة من شهر حزيران جاءت إليَّ كلوديا مذعورة.. ولما رأيتها ارتعشت مفاصلي قلت: كلوديا.. هل أنتِ بخير أجابت: لا أظن بأنني سأكون بخير قلت: لا تنفعلي كلوديا.. حتى ليلة البارحة كنتِ بخير لا تفقدي صوابكِ.. أنتِ ذكية وأخجل من أن أسدي إليكِ النصائح. هل نفخ أحد في الصور.. هل سقطتْ الشمس.. هل جفّتْ مياه البحار..

قالت: هل سجّلت صوتي على اسطوانة في أحاديثنا الهاتفية؟.

قلت: لا.

قالت: أنا واثقة منك.. ولكن قبل ساعة اتصل بي شخص مجهول وأسمعني مكالماتنا مسجلة على شريط كاسيت!!.

- وماذا سيفعل بها.
- قال لي بأنه سيعطيها لأهلي.
- سنقول بأن المكالمات وهمية.. استطاع أن يتحصل على بعض المكالمات ويطبق منها هذا الشريط المزور.
- هل تظن ذلك.. لقد أرحتني..

- ليس أمامنا غير هذا.. إذا اتصل بكِ قولي له هذا الكلام.. واعلميه بأنكِ ستخبرين أهلكِ باتصالاته قبله.

في صباح اليوم التالي اتجهتُ إلى مبنى مديرية الهاتف، والتقيت بصديق لي يعمل هناك.. شرحتُ له ما حدث ولكن لم أذكر كلوديا.. فأعلمني بأنه ليس باستطاعة أحد أن يسجّل مكالماتي.. إلاّ جهاز المراقبة في المديرية وأكدّ هذه المعلومة فلا أحد يملك جهاز التنصت على المكالمات غير المديرية.. وعدتُ إلى البيت واتصلتُ بكلوديا وأخبرتها بما حدث معي في مديرية الهاتف.. فقالت بأنه اتصل معها وطلب منها مبلغاً لقاء أن يسلمها الكاسيت.. فأغلقتْ السماعة في أذنه، ولم ترد على محاولاته.

قلت: لا يا كلوديا.. ستفتحين باباً لا يمكن إغلاقه بسهولة.

وبعد ذلك اتفقنا على الحديث المموّه الذي لا يفهمه غيرنا.. فمثلاً عندما تتصل وتقول بأنها مريضة ولا تستطيع أن تتحرك من الفراش، أفهم بأنها ستأتي إلي بعد قليل. وعندما تقول بأنها ستنزل إلى السوق وستراني عند الكنيسة فيكون اللقاء بالقرب من الجامع. وعندما تقول بأن حفلة سهرة في البيت ستمتدّ حتى الصباح أذهب في الثانية عشر ليلاً. وبدأنا نغيّر أماكن لقاءاتنا.. فنلتقي في باص النقل الداخلي وندور فيه ثلاث أو أربع دورات.. أو نلتقي في عيادة طبيب الأمراض النسائية.. أو في بيت صديق. وفي هذه المرحلة كنت حريصاً على تتبع أخبارها.. وكنا نتواصل بشكل شبه يومي سواء في اللقاءات أو من خلال الهاتف.

هذا الرجل يثيرها بمكالماته، واستطاع أن يفجّر بركاناً في علاقتنا ولم تكن قضية نقود لكنها أكبر فيمكن لهذا الرجل أن يظهر كل شهر كالشبح ويهددنا.. وهو بكل تأكيد يراقب هاتفينا ويلتقط حتى الحروف. فلا شيء ينقذنا منه إذا فتحنا له باباً ٠ حاولت بكل الطرق أن أتعرف على هويته ولم أنجح إنه يحرق أعصابنا ، هو المصدر الوحيد لكل هذا القلق

والتوتر كل هذا دون أن نراه. ويبدو بأنه يخطط لشيء آخر فقد اتصل بي ولم يفه بحرف ، عندما رفعتُ السماعة جاء حديثي مع كلوديا واضحاً في السماعة.. وهذا ما أثارني.. فلا أستطيع أن أفعل شيئاً.. لأن الأمر متعلق بقضية كبرى هي كلوديا.

لقد شل تفكيري وفي أوقات تخطر لي أفكار غريبة فأتخيله.. يراقبنا وعندما نلتقي يتصل بجهة وتحل الكارثة فنصبح على كل لسان. أو يتصل بأهلها أو يفعل أي شيء يلحق بنا الزلزال.

التقينا في باص النقل الداخلي برعب لقد تغيرت كلوديا.. أصبحتْ كالمهووسة.. تلتفت إلى أي راكب وتقول: إنه هو.. ثم تردد:

ولكن لن ينتصر علينا.. ما دمنا نتمسك ببعضنا.. سأدافع عن قضية حبنا العادلة في الأرض وفي السماء.. سأفعل كل ما بوسعي وبطاقتي حتى نستمر. حتى لا يموت حبنا العظيم.. أنا قوية بك.. قوية بحبك.. ومستعدة لأن أكون ضحية لقضية حبنا العادلة الكبرى.. ألا يناضل الإنسان من أجل ما يؤمن به.. أنت قضيتي العظمى التي أناضل من أجلها.

ولا تصدق بأن امرأة أحبتك بهذا الجنون.. حتى التي حبلتْ بك.. هل تصدق بأنني خائفة من حادث في هذا الباص فقط لأنك فيه.. أنا لستُ قلقة علي من ظهور هذا المفزع ولكنني قلقة عليك.. أنا خائفة.. أعترف بأنني خائفة.. يبدو لي بأنني لا أستطيع أن أخرج من البيت. كيف سنلتقي بحق الرحمن. وهل سأطيق ألاّ أراك شهراً كاملاً.

من أجلك.. من أجل اللقاءات الساحرة التي تنتظرنا سأحاول أن أكون شجاعة سأحاول أن أكون فدائية وهل هناك أسمى من النضال في سبيل الحياة.. وفي سبيل السعادة.. سأناضل بقوتي المنهكة وبأعصابي المحروقة.. أنا واثقة بأنني لن أستسلم.

تمد يدها بحذر إلى يدي وتقول: لن نترك هذا الكرسي.. سندور دورة أخرى.. لماذا يريدون اغتيال الحب.. لماذا يحيلونه في قلوبنا إلى كل هذا الرعب.. قل لي شيئاً عن هذا الذي يسمونه حباً.

- سأقول بأن المدينة ترتديك.. وأنت ترتدين المدينة بكل حدائقها وطرقاتها وأبنيتها.. رائحتك تفوح من كل ما في هذه المدينة وتتحول إلى أعظم مدينة في العالم.. الحب يعتصر حواسي وقلبي.. لقد سقطتُ في حب هذه المدينة التي لا تخلعكِ، ويحلو لي كل هذا الذوبان وأنا أتسكع في طرقاتها وأعتبر هذا الذوبان نضالاً في سبيل قضية سامية.. الحب لا ينطفئ في ضمير الإنسان.. ومتى ما انطفأ الحب في ضميره.. انطفأ الإنسان في ضميره. بالحب يتذوق الإنسان الموسيقى وبه يكتشف ملامح الجمال وبه يميل إلى تحقيق العدل، لأن قوة الحب هي ذاتها قوة العدل.. وهي ذاتها قوة الخير في الذات الإنسانية.

الحب هو الذي يفجّر طاقات الإنسان نحو الخير والبناء إنه قوة جبارة ضد التنازلات الكبرى ضد السقوط الذريع الذي يتعذر النهوض بعده ، من الحب تولد زهور النزاهة البشرية وزهور الصفاء وإمكانية الاستمتاع بقيم الإنسان والطبيعة في علاقة صفاء أبدية بين الإنسان والطبيعة.. بين الإنسان والإنسان.

الحب هنا يبني الإنسان ويدفعه إلى الامتلاء بالحياة ولأن يكون صاحب قضية وصاحب موقف، هي قضية النزاهة البشرية، وهو موقف الصدق البشري تجاه النفس وتجاه الآخرين وتجاه الله.

الحب يرفض أشكال النفاق لأنه يبني العلاقات الكبرى مع الأرواح الحية والدماء الزكية الطاهرة.

الحب هو بيت الإنسانية الكبير الذي يتسع لكل عشاق العالم.

الحب يشرق كل صباح في حدائق الزهور ويملأ المدينة كلها بروائح الحياة ويملأ سكانها بالقيم وصفاء الحياة ونورها ولكن الحب

يختنق ويحتضر على المزابل وأعرف جيداً يا كلوديا أن هناك من يسعى لتحويل تربتنا الجميلة إلى قمامة كبرى، وتحويل الناس إلى كلاب تعوي على هذه القمامة .

أظن بأنني ثمل الآن في عزلتي المنسية أظن بأنني كائن منسي أظن بأنني سأتناول مزيداً أظن بأنني سأدخن مزيداً أظن بأنني سأرفع صوت الموسيقى مزيداً أظن بأنني سأمارس الحب مع شبحك مزيداً.. وأظن أن الليل يبدو أكثر رعباً والبيت أكثر ضيقاً والسماء أكثر علواً، يا ليل الموت ألا تنتهي ويا أيها الصبح ألا تتنفس، لي حبيبة واحدة لي عشيقة واحدة لي امرأة واحدة من كل هذا العالم اختطفها من محرابي لصوص الحب.

بعد يومين اتصلتْ بي كلوديا وقالت بأنها تحدّثت مع الشخص المجهول ووافقت أن تعطيه المبلغ الذي حدّده فقلتُ مرة أخرى : ما تريه هو الصواب ما يهمني هو أن ترفعي عنكِ البؤس. وقالت بأنه سيأتي في الحادية عشرة صباحاً سيقبض النقود ويعطيها الكاسيت ، وعليَّ أن أكون في الثانية عشرة هناك لنسمع معا مايحتويه هذا الكاسيت. وبدون أي تفكير وفي الثانية عشرة ظهراً مشيت بحذر إلى أن بلغت البيت و رأيت الباب مفتوحاً وكلوديا تنتظر واقفة وعندما رأتني انفجرت بالبكاء وقالت: قبل قليل كنت سأرتكب جريمة مع ذاك الكائن ٠

قلت: هل جاء ؟.

- جاء وذهب.

قلت بتوتر: والكاسيت ؟.

أجابت: لم يعطني شيئاً لقد اتفقنا على كل شيء كنت في حالة انهيار عندما اتصل بي فقلت بأنني موافقة على المبلغ وأعلمتك بالخبر ٠ جاء في موعده ومعه الكاسيت قلت له بأنني حالاً سأحضر المبلغ ، وغبت للحظات أحضرتُ كيساً فيه بعض الدفاتر والأوراق الفارغة

وناولته كأساً من عصير التفاح تناول مني الكيس وكأس العصير وناولني الكاسيت فقلت له: هل أنت متزوج ؟

قال: نعم متزوج.

قلت: هل لديك أطفال ؟.

قال: لدي ثلاثة أطفال.

قلت: هل تحبهم ؟.

قال: أحبهم كثيراً .

قلت: وهم هل يحبونك ؟.

قال: يحبونني .

ورفع كأس العصير إلى فمه وعندئذ لم أتملك نفسي وصرخت: لا.. لا..

قال: ماذا..؟!!

قلت: هذا العصير فيه سم

قذف الكأس على الموكيت هنا وهرول إلى الخارج حاملاً الكيس • تذكرتُ زوجته التي تحبه وأولاده الذين يحبونه وكنت قبل أن أعرف ذلك خططت بأنه سيخرج فور تناوله العصير المسموم وسيرتمي في إحدى الشوارع ولن يلحق به من يسعفه ولن يعرف أحد أين تناول العصير ، كنت أظن بأن لا أحد يحبه وعندما عرفت بأن ثمة امرأة تحبه وتنتظر عودته أطلقتُ صرختي المروعة تلك.

فور خروجه وضعتُ الكاسيت في المسجلة واستمعتُ إلى خيبتي.

- أي خيبة ؟.
- هل ترغب سماعها ؟.
- أرغب

وضغطت على زر التشغيل فجاء صوت أجش :

/ سيدة كلوديا.. ألا تظنين أن هذا الثمن قليل لما تريديه مني سأترك لك تقدير المقابل في المرة القادمة وإن أرضاني فسأعطيك الكاسيت المحفوظ لدي وهذا المبلغ سأعتبره دفعة على الحساب / .

أما كلوديا فبدأت تضحك ملء شدقيها بنبرة يائسة سمعتها لأول مرة وقالت: هل تظن بأنني سأكون ذات يوم كذلك ، لكنه هو الذي دفعني وأنت منعتني وزوجته التي تحبه منعتني ٠ ها أنت ترى بأن الدنيا كلها تركتني وتخلت عني عندما مات زوجي أعيش في عزلة عن العالم وعندما دخلتَ حياتي، جاء هذا ليأخذك مني ويدمّر حتى هذه العزلة الوحيدة التي بقيت لي ٠

تركتها وعدتُ إلى البيت بخيبة أشد من خيبتها وكنتُ قبل ساعة ظننت بأن أيام الرعب ستنتهي.. ولكنني كنتُ على وشك أن أفقد كلوديا كلها. لا يهمني أي شيء في العالم غير أن تكون كلوديا هادئة وتعشق الحياة وتربي طفليها .

بعد ثلاثة أيام من تلك الحادثة سمعتُ صوت الباب في الواحدة ظهراً.. هرولتُ وفتحته ظاناً أن كلوديا تقف خلفه، رأيتُ رجلاً لم يسبق لي أن رأيته من قبل، مدّ يده إلي وصافحني وقبل أن أفتح فمي مدّ إليَّ كيساً صغيراً وقال: أنا الرجل الذي سجلتُ مكالماتك مع كلوديا.. أشعر بإثم لا يدعني أنام بعد موقف كلوديا معي ، كان من المفترض أن أكون ميتاً لولا تسامحها لقد أقسمتُ على ترك ذلك وهذه هي كل الاسطوانات الأصلية والمنسخة.

أنهى هذه الكلمات وانصرف تاركاً بيدي الكيس ودون أن يدع لي أي فرصة لقول كلمة واحدة .

في ليلة الخميس شعرت بإنهاك شديد لم أستطع القيام من الفرشة فقط طيف سماح يتراقص ولا شيء غيره ولا أدري كيف متُّ أو غفوت لا أدري في أي ساعة.. في السادسة صباحاً صحوت وبدأتْ الدموع تنزلق من عينَي ثم انفجر البكاء من حنجرتي بكيتُ بصوت مرتفع حتى السابعة ٠ اليوم جمعة.. أيها الرب الرحيم احم لي سماح لو كانت هنا لأتت هل مرضت ؟ ٠

وانقبضتْ معدتي ، دارت الجدران أمام عيني وعاد قلبي إلى الهبوط.. تجاوزت الساعة الثامنة ولم تطرق الباب ، أي جحيم هذا لن أحتمل الحياة يوماً واحداً إنني أفضل الموت على هذا الانتظار المميت، انتظار من تأتي أو لاتأتي وغفوتُ في الفرشة وأنا أرتجف.

في العاشر استيقظت واتجهتُ على الفور إلى منطقة رأس العين سألتُ عن أحياء الغجر وبدأت الأحياء تتقاذفني وتستقبلني لم أجدها.. وكلما أجد امرأة أقول: هاهي.. يا إلهي كم أحببتُ الغجر أدخل بيوتهم وأتعلم منهم. عند العصر اتجهتُ إلى مدخل المنطقة بحثتُ في الخيم خيمة خيمة ولم أعثر عليها. عدتُ خائباً حزيناً وفي صباح اليوم التالي تجولت في كل أحياء المدينة عثرتُ على مجموعة خيم ولم أجد خيمة سماح، أشعر بأنني أبحث عن امرأة فقدتها إلى الأبد.

تعلقت بمناظر خيم الغجر، وكلما أرى تجمعاً من الخيم أنجذب إليه، لأن سماح تسكن خيمة وعندما أرى غجراً أتقدم إليهم، لأن رائحة سماح تفوح منهم، لأن سماح غجرية. يتحول البحث عن هذه المرأة إلى قضية كبرى تشغل معظم أوقاتي وتفكيري ولا أجد مبرراً يقنعني بجدوى هذا الإنهاك ربما شكل من ممارسة الفوضى، أو مواساة الحواس، أو ربما الضحك على النفس هكذا تتحول سماح إلى كل شيء وأتحول إلى لا شيء لكن ما يعزّيني هو أنها تمكنت من تفجير طاقة الصدق الهائلة في عمقي، لم يسبق لي أن عشت هذا الجحيم الكبير من الصدق من الإخلاص. هل أبحث عن مقدار الصدق الموجود داخلي في بحثي عنها هل أختبر قوة حبي هل أنا أحبها حقيقة وما هو الحب الذي لم يتمكن مخلوق من تعريفه بأقوى أو أضعف كلمات ؟.

في ساعة لن أنساها حتى بعد موتي في يوم مبارك في لحظات سخية، يوم الجمعة الأخيرة من شهر كانون الأول دخلتْ سماح بكاملها وانتفضتُ لمعانقتها، ضمتني إلى صدرها بقوة العالم بقينا واقفين محتضنين ساعة كاملة بدون أن يقول أحدنا للآخر كلمة واحدة. كنتُ سعيدا كطفل ، جلسنا على الكنبة بحركة واحدة ونظرت إليَّ مرة أخرى وبكتْ عندئذ قبّلتُ يديها بحرارة العالم وبدأتْ تقبلني بعنف وسخاء ، وفجأة رأيتها تخلع ثيابها قطعة قطعة حتى تعرت من آخر قطعة ، ياإلهي امرأة بكامل عريها أمامي ، لأول مرة أرى امرأة عارية ، لأول مرة تقع عيني على أعضاء امرأة ، نظرتُ إلى الجسد نظرات أدمعت عيني ، وتذكرت في تلك اللحظات عظمة الله وهو يخلق جمالا ساحرا كهذا ، وأي سحر أي جمال يشرق أمام ناظري في هذا الجسد السحري المتناسق ويحيل هذه الغرفة المغلقة إلى ربيع ، أجل لم يسبق أن شاهدت عيناي ربيعا بهيا كهذا ، ولكنني بمقابل ذلك تذكرت جبل الفقه ، تذكرت نظرات أمي وأختي / زلفى / تذكرت بأنني الفقيه الصغير وفي غمضة عين هرولتْ بي خطواتي إلى الخارج ، نادت بي سماح ، ولم أستجب ، ركضت إلى أن وصلت بيت صلفيج وأنا ألهث ٠ قلت لصلفيج بأنني متعب وأريد أن أنام ولاأحد يحدثني بكلمة واحدة ٠ وأغلق علي صلفيج باب غرفة نومه ، أغمضت عيني واستغفرت الله مئات المرات حتى تهدأ روعي من أثر ما شاهدت وأخذتني غفوة . في الصباح جاء صلفيج يقدم لي طعاما ولم أستطع أن أتناول شيئا ، قلت في سري بأنني لاأستحق أن أتناول نعمة من نعم الله مادمت قد خنت عهدي معه ، ولابد لي من أن أعاقب نفسي حتى أموت ، كان علي ألا أفرط بالحرية التي وهبها لي الله ، كان علي ألا أسمح لسماح أن تفعل مافعلت ٠ ولكن صلفيج نجح في التخفيف عني دون أن يعرف أي شيء عما حدث وقد حرصت كل الحرص على إخفاء ذلك رغم أنه تحدث لي كثيرا عن

علاقاته وعن مواقف مشابهة وقعت معه ، كما سبق لفؤاد أن تحدث عن أحداث عاشها لحظة بلحظة ، وأمام كل هذه الوقائع بدأت أهدأ بعض الشيء ، وفي المساء شاركت صلفيج الشرب حتى نمت ثملا ٠ ثلاثة أيام أمضيتها في بيت صلفيج دون أن أرى الشارع ، ولكنني في اليوم الرابع وعند الساعة العاشرة والنصف صباحا خرجت من البيت وعدت إلى بيتي لأرى سماح جالسة تنتحب بانتظاري وما إن وقعت عيناها علي حتى نهضت وعانقتني قائلة والكلام يخرج ثقيلا من حنجرتها : لكن ألا تعرف بأنه ليس من حقك أن تفعل بمحبيك هكذا ٠ وعانقتها وقد اغرورقت عيناي مرة أخرى بالدموع وأنا أتمتم : أجل ياسماح إن حبي لك هو الذي أعادني ، لم أعد قادرا على قوة الشوق ٠ ثم رفعت رأسها وبدأت تنظر إلي وكأنها تراني لأول مرة : كل يوم أقطع كل تلك المسافة وأبقى بانتظارك حتى المساء وأخرج لأعود في الصباح ثانية ٠ لم أعرف ماالذي قصدته ولم يكن يهمني أن أعرف رغم أهميته بالنسبة لي ، وعادت تضع رأسها على كتفي وتبكي بحرقة ، وعادت الرغبة تشتعل في حواسي ، مرة أخرى رأيتها تخلع تلك الثياب قطعة قطعة حتى تعرت ، مددت خطواتي نحو الباب ولكنها سارعت ووقفت بصدرها في مواجهتي مولية ظهرها للباب المغلق ، وعندما دنوت من الباب محاولا إبعادها عن الطريق وقع فمي على جزء من صدرها واشتعلت فيّ نار شهوة عارمة حتى أحسستُ بأنها ستحرقني ، وتراجعت بي خطواتي ببطء شديد نحو الخلف وأنا أنظر إلى جمالية الجسد العاري ، وتقدمتْ سماح حتى وقعنا على السرير عاريين . كانت أمتع وأثرى لحظات حياتي التي عشتها ، ولا أظن أن هناك أعظم من هذا الظفر في الكون كله ، لم أكن أعلم أن باستطاعة امرأة أن تقدم كل هذه المتعة المدهشة لرجل .

سماح كنزي الخالد منحتني ما لا يمكن لأحد أن يمنحني إياه ، منحتني الجسد والحب والسكينة ،ليست هناك أرقى وأسمى من هذه اللحظات، لحظات الجنس المباركة مع هذه الغجرية الدافئة في ساعة شتائية مثلجة كهذه إنها لا تُشبع وهل سأرى ساعات أثرى وأرقى من هذه وخرجت مني كلمات ثملة : سماح أنتِ حياتي كلها سماح أحبكِ إلى آخر نفس الذي كان وسيكون هو أنتِ ، أنتِ الخطوة الأولى أنتِ الخطوة الأخيرة لا أصدق بأنني سأصادف يوماً أمتع من هذا أبداً ، لم أكن أعلم أن لدى الإنسان طاقات يمكن لها أن تقدم له كل هذا الإشراق الجسدي والروحي معا .

واستلقينا على ظهرينا في السرير داعبتْ شعري : أنت كليتي، أنت قلبي، عيني، عمري، أنت كل شيء يا حبيبي ، وهذا سيكون لي وحدي لسماح كلك ملكي هل ستخطفني من مملكة الغجر بعد منتصف الليل ؟.

- ماذا حدث ؟

- طردونا قبل عودتك بيوم فذهبنا إلى بيتنا في رأس العين. لم نجد حلاً غير ذلك ، الخيمة لا تصلح للشتاء ولكن سنأتي في أول الصيف سنصبر من أجل مستقبلنا.

- ماذا تقولين ؟

- لا تخف أنا فكرتُ في الأمر أكثر منك ورتبتُ لكل شيء انظر سأخرج كل يوم جمعة في السابعة صباحاً من بيتي وأتجه إلى "الكراج" المسافة كلها بينك وبيني لا تستغرق ساعة وفي التاسعة أكون هنا حتى الثانية ثم أعود إلى الكراج وأكون في البيت في الثالثة والنصف عصراً لن يتغير شيء سنمارس ذات الخطة وهاهي النقود جلبتها إلى خزانتي، كلها ثلاثة شهور فقط وفي نهاية شهر شباط القادم سنكون هنا. وأدركت للتو كم أنني كنت قاسيا بتصرفي معها ، وأدركت أيضا معنى كلامها أنها كانت تقطع كل يوم كل تلك المسافة ذهابا وإيابا ، ولاأدري لماذا خطر

لي في تلك اللحظة أن أقارن صبر المرأة على رجل تحبه كصبر الجمل على الماء في صحراء قاحلة ٠ وسألتُ نفسي سؤالا واحدا : إن لم يكن الحب هو دافعها فما الذي يرغمها على كل هذه المخاطرات وهي التي لاتريد مني شيئا ، وهل أنا الرجل الوحيد في العالم حتى تطلب مني جنسا ، أ ليس بوسعها أن تتجه إلى أي باب آخر غير بابي ٠ وطبعتُ قبلة على جبهتها ، ثم قبلة على عينها ، وأخرى على العين الأخرى ، ثم قبلتين على خديها : لن أقول كلمة واحدة سأترك كل شيء لك لا أعرف كيف فاتني التفكير في هذه الخطّة لقد فكّرت بكل طريقة تخطر ولا تخطر ببالك إلا طريقة سفركِ إليّ كل يوم جمعة وعودتكِ.

- الذي يصر على شيء سيصله أنا واثقة بأن أحداً لن يفرق بيننا ما دمنا نتمسك بموقفنا.

- وهذه المسألة لا أعرف ما أقول بشأنها لا أجد أي تسمية لها.

- لا ترهق نفسك في هذا البحث المضني هذا حدث بإرادتنا لم يغتصب أحدنا الآخر بل قدّم السعادة للآخر هذه أمور شخصية خاصة بينك وبيني نستطيع أن نتسامح لا نؤذي أحداً هذا أمر يخصك ويخصني وبالتالي علاقتنا مع الله ، لا أحد يدّعي علينا جسدي يعنيني فقط إنه ليس ملكاً لأحد ليكون وصياً عليه إننا نعيش في مجتمع متخلف أكسبنا الكثير من عقده وتخلفه ، هذا كل ما في الأمر .

- أنا لا أفتش عن مثل هذه التبريرات وأعرف بأننا نرتكب حماقة لكنها حماقة مقصودة وممتعة .

- سأنجب لك طفلاً.

- لا يا سماح ستدمرينني هكذا

- ألا تريد أن تنجب مني ؟

- أريد ولكن سيعذبني لن أراه لن أستطيع أن أقول له يا بني هذه مأساة أما أنتِ فسيكون معكِ ويقول لكِ: يا أمي وتقولي له: يا بني كل لحظة تشائين وعلى الملأ.

- ألا تريدني أن أتوقف عن الأقراص المانعة ؟

- ليس بهذه الطريقة

- أرجوك وافق أرجوك إنها أمنيتي.

- وكيف سأوافق على مغامرة مصيرية كبرى كهذه ياحبيبتي ، الأمر يعني المستقبل كيف سأرى ابني يعيش في خيمة ربما لن يحبها مثلي ربما يشقى فيها .

- ولكن سأهتم به سيكون ابني أيضاً سيوثق العلاقة بيننا ولن يدعك تفكر بالزواج للحظة واحدة سأكون عشيقتك التي تملأ مكان الزوجة بالإضافة إلى ذلك سأجعلك أباً.

- كيف ستعرفين بأنه مني ؟.

- الأمر ليس معقداً بالنسبة لي، لن أدع زوجي يقترب مني إلى أن ينقطع عني الحيض وعندئذ سأشعر بأنني حامل، ثم ليقترب ما يشاء ستكون أنت قد سبقته.

- في أي شيء ؟

- في وضع نطفة مستقبلي معك.

- مستقبلي ، أه ياحبيبتي ، وأي مستقبل هذا ، علينا أن ننتظر بعض الوقت ، قد يحمل لنا القادم حلولا مناسبة أكثر ٠

- حدثني عنك ، قل كل شيء

- ياه ياسماح .. كل شيء ، وهل سأستطيع أن أقول لك كل شيء .. كل شيء ، هكذا تقولينها دفعة واحدة ، لكن سأقول لك شيئا من كل شيء.

كان أبي يحب أمي بجنون ، كانت أمي ابنة أحد الفقهاء في قرية مجاورة لقريتنا ، كان ذاك الفقيه هو الذي عرض ابنته على أبي ليتزوجها : ياناهل لماذا لاتتزوج وقد غدوت في الخامسة والعشرين من عمرك وأنت رجل ورع وملتزم ٠
قال أبي : والله يا سيد سباهي بي رغبة للزواج ولكن يعلم الله بأنني لاأملك من مهري شيئا ٠
وقاطعتني سماح قائلة بخفوت وهي تصغي : ألا يوجد لكم أقرباء حتى تتعاونوا في هذه الأمور ؟.
- لاأقرباء لنا ، فقد هاجر من تركيا مع أخيه الوحيد الذي كان في العشرين من عمره إذ ذاك وكان أبي في العاشرة ، هاجرا إثر عداءات قبلية كانت بمثابة حرب ضروس بين قبيلتين قضت على معظم أبنائهما ، ومذ ذاك انقطع كل خبر بين الأخين المهاجرين وبين أهلهما ، ولايعرفان إن كان ثمة أحياء أم لا ، وإن كان ثمة أحياء فإنهم لايعلمون شيئا عن هذين الشابين ، حتى عندما يأتي شخص من تركيا لزيارة أحد أقربائه في القرية أو إحدى القرى المجاورة فإنهما يبتعدان عنه تحسبا من أن يكون د سيسا من تلك القبيلة .
بعد سنوات قليلة من حضورهما حصلت هذه البلاد على استقلالها ، حتى أن أبي يقول ممازحا : نحن حللنا من هنا واستقلت البلاد من الفرنسيين في وجوهنا من هنا ٠ وحصلا مع الكثيرين على جنسية هذه البلاد وقد نسيا بأنهما ولدا ذات يوم في تركيا ٠ أجل مايزال أبي حتى اللحظة يشعر بخوف عندما يُقال بأن أحد الأتراك قد قام بزيارة قريب له ، يمنعنا من الخروج ، وعمي بدوره يمنع أولاده من الخروج رغم مرور مايزيد عن نصف قرن على تلك الحادثة القبلية في تلك الأراضي التي أصبحت محظورة علينا نحن الأبناء ولانحلم حتى بزيارتها زيارة خاطفة ٠ قال أبي لنا كل شيء وهو يحذرنا من مجرد التفكير للذهاب إلى

تلك البقاع المحفوفة بالمخاطر : أنتم أبناء هذه البلاد وهي مسقط رأسكم ، تعلمتم فيها وأديتم الخدمة التجنيدية فيها ، ووهبتكم جنسيتها ، لاشيء لكم هناك ٠ وقال بأن اسمه الحقيقي عندما كان هناك هو / بهير / علينا أن نحفظ ذلك جيدا لأنه قد يلزمنا ذات يوم ٠ الآن عمي / رفاعة / له ستة أولاد وثلاث بنات هن : سندس ، وسيسبان ، وسلافة ٠ أما أبي فقد أنجب أخي الكبير / ساجد / ومن ثم أنجبني ، وأنجب أختي الوحيدة / زلفى / بعدي بخمس سنوات ٠

قالت سماح وهي تريد أن تسترجعني إلى مطلع الحديث الذي قطَعَته : ولكن كيف تزوج من أمك وهو لايملك مهرها ؟

- قال لجدي بأنه لايملك شيئا ، ولايوجد له أقرباء ليقدوا له المساعدة في أمره ، فقال جدي : أنت رجل متدين ودمث الخلق يا ناهل ولن أجد لابنتي / ضحى / شخصا تقيا وورعا مثلك ، سيكون مهرها أنك كل سنة وفي شهر رمضان تهدي إلي ختما من القرآن مادمتَ حيا ترزق ، وتوصي أولادك وبناتك الذين تنجبهم / ضحى / أن يفعل كل واحد منهم ذلك ماداموا أحياء يرزقون ولاعلاقة لي بعد ذلك بالأحفاد ، وأنا لقاء ذلك سأقوم بتجهيزها بما يقّدرني عليه الله وأضع يدها في يدك حليلة طيبة إنشاء الله ٠ فقال أبي وهو يمد كفه إلى كف جدي : على بركة الله اتفقنا إنشاء الله يا سيد ناهل ٠

- لقد مات جدي بعد ذلك بأربع سنوات ، ومايزال أبي يختم القرآن ويهدي قراءته إلى روحه ، ومانزال نقتدي به ، كانت أمي دوما تقول لي : هل قرأت قراءة جدك ياقطب ، قراءته أولا قبل قراءتي وقراءة أبيك ٠ كنتُ أختم القرآن أربع مرات في شهر رمضان ، أهدي واحدة لجدي ، وواحدة لأمي ، وواحدة لأبي ، والأخيرة كنت أتركها لي ، كنت من الجمعة إلى الجمعة أختم ختما ، لم أكن أقرأ شيئا في رمضان غير القرآن ،

أحيانا كنت أقرأ من التاسعة مساء وحتى الصحور دون توقف غير أنني أجدد وضوئي كل ساعتين وأعو د على قراءته بنهم ٠ مانزال جميعا حتى الآن نسدد لجدي مهر أمي ذاك ٠ حتى أنني عندما توقفت عن الصلاة وحلقت ذقن التعبد بقيتُ أداوم على تلبية الوصية في شهر رمضان وما أزال مداوما عليها ٠ كانت أمي جميلة ، من النساء النادرات بجمالهن في هذه المدينة ، لم أكن اعلم ذلك لكن خالاتي كن دوما يرددن ذلك ورأيت بعض النسوة من الجوار أيضا يرددن ذلك ، أما أبي فكان دوما يقول بأن الله رزقه بأجمل امرأة في عصرها ، كان متعلقا بها وقد اعتدنا أن نراه يعود من صلاة العشاء ويقول لها : صباح الخير يا ضحـــى
فتضحك أمي وهي تقول : أسهوت سهوا أم كان ذلك مزاحا
فيقول أبي : إشراق وجهك غرني حتى تخيلت المساء صباحا ٠ ثم يقول قول الشاعر من جديد :

قالت وقد صبحتها بعشية :
أسهوت سهوا أم كان ذلك مزاحا
فقلت لها :إشراق وجهك غرني
حتى تخيلـــت المســاء صباحا

ولم يكن يجد حرجا وهو يضع عمامته جانبا ويقبلها من خديها أمامنا ونحن نبتسم ونشعر بخجل من ذلك ٠ لم تكن أمي تخرج من البيت ولم يسمع رجل غريب قط صوتها ، كان أبي دوما يقول لها بأن صوت المرأة عورة مثل أي عورة في جسدها ، وأن الرجل يرى بسمعه جسد المرأة في صوتها بنظرة أقوى مما لو رآها رأي العين ٠ أما عندما كان

يأخذها ألى بيت جدي ، لم يكن يظهر من جسدها شيء قط ، بل كانت تخفي حتى لون الحذاء الذي ترتديه بجلبابها الطويل ، وكانت تخفي حتى كفيها بكم جلبابها رغم أنها لم تكن تخرج دون ارتداء كفيات ، ولم يسبق لي أن رأيت أن رجلا غريبا قد رأى عينيها ، أو وجهها أو كفيها ، أو حتى سمع نبرة من صوتها وقد أصرت أن تربينا ذات التربية وخاصة أختي / زلفى / التي غدت صورة عنها ٠ ولكن كان لابد من ترك ذاك العالم ، كان لابد من الخروج عن كل تلك الوصايا والمحاذير ،أن أسافر إلى أماكن بعيدة وأنفتح على الحياة لأرى الضفة الأخرى من العالم لأرى مستقبلي بعيدا عن تلك الأجواء ٠ لكن أمام كل هذا لأعترف لك بأنني مازلت أتألم مع كل خطوات من خطوات الخروج أولئك ، وكم من مرة أتخيل فيها وأنا عائد إلى القرية نادما أقبِّل يدَي وقدمَي أبي وأعود لارتداء طقم الفقه الذي ماتزال أمي تخفيه بعناية في خزانتها ، وأتزوج ابنة خالي التي اختارتها لي لأمي لأنها صورة طبق الأصل عنها ، وأمضي ماتبقى من حياتي بين البيت والجامع ٠ لذلك لم يكن سهلا أن أرى امرأة بكامل عريها أمامي ، لم يكن سهلا علي أن أدير ظهري عن تاريخ من الفقه ، أن أغمض عيني عن عالم من تلك التربية الصارمة التي تلقيتها ، عن نظرات أبي وصوت أمي ، عن الناس وهم ينادونني / الفقيه الصغير / وهم يستمعون للأشرطة التي أتلو فيها القرآن ٠ يكن يبدو أن للمعصية منزلة في قلب المرء لاتبرحه حتى غمضة العين الأخيرة ٠

بقيت أيام الجمع كلها لنا وكل جمعة نلتقي بشوق سبع سنوات،، وتعلقت بهذا اليوم الجليل من الثامنة وحتى الثالثة أكون فيه في حضن سماحتي التي لا أشعر للحظة واحدة معها بأي إحساس بالإثم ، أشعر بأنها زوجتي وأتعامل معها كزوجتي وهي أيضاً تستجيب لهذه العلاقة وعلى الأغلب تهتف في أذني :

سأكون لك وحدك حتى لو فقدتك، أي مجنونة أنا كي أرمي بجسدي في حضن غيرك.

- أنا لا تهمني هذه المسائل لا تقطعي عهداً قد تخلفيه.

- أنت المجنون لا شيء لي غيرك لقد عرفت كيف تحتل هذه المكانة؛؛

المسألة ليست ماءً يروي العطشان من أي كأس المسألة أنني حقاً لا أشعر بأي عطش عندما لا أراك فقط عندما أراك تستيقظ أنوثتي، أنت الرجل الوحيد في العالم الذي يشعرني بأنوثتي لا أمنح جسدي لأحد لا لأنني لا أريد خيانة زوجي ، فأنا الآن أخونه معك سواء اعترفت أو لم أعترف، ولكن حتى لا أخونك، لا أتصور بأنني ذات يوم سأطعنك هذه الطعنة أنت الذي ملأت عالمي وجعلتني أدرك الحياة ولهذا لا أدعه يقترب فرشتي وهو زوجي إلا اغتصاباً ورغماً عني لأنني في تلك اللحظات الأبأس أعيش حقيقة لحظات الخيانة العظمى معك. وسواء صدقت أم لم تفعل، فإنه لم يهنأ بعشرتي مذ عاشرتني ولم يتمكن مني إلا اغتصاباً فهو في كل مرة يغتصبني وأعجز عن الصراخ حتى لا يلتم الأهل، لا أدري ما الذي يغير الإنسان.

- وقد يحدث هذا التغيير معي أيضاً.

- المسألة ليست كما تبدو لك.

- كيف ؟

- الحقيقة التي أعرفها هي أنني كنتُ مهيأة لأن أقدم على خطوة كهذه لأعبر لنفسي عن حقيقة مشاعري تجاهه وأنا الآن مرتاحة لهذه الخطوة وهذه الراحة تُقابل واقع الخيانة معه، الخيانة هي حالة لا مسؤولية تجاه الفراش الزوجي الرجل هو الذي يدفع امرأته إلى العهر سواء عن قصد أو غير قصد ، لاتنظر إلي هكذا فأنا لست غبية للحد الذي تتصوره ، ماعلمتني خفايا البيوت التي ولجتها ، لايقل عما علمتك

إياه بطون الكتب التي قرأتها ٠ عندما يُعلمني زوجي بأنه كذاب، يسقط من عيني، عندما أعلم بأنه غدّار أحتقره، عندما يشتمني أحقد عليه، عندما يضربني أرغب في الرد. إنه بحركاته هذه يجرد نفسه من أي علاقة عاطفية بي دون أن يقصد ويفتح الباب لغيره، ما هو العهر أعني حقيقة العهر إنه حالة لا مسؤولية تجاه الفراش الزوجي أولاً، وتجاه الجسد ثانياً، وهذه اللا مسؤولية يخلقها الزوج نفسه سواء قاصداً أو غير قاصد. وهذه اللا مسؤولية تجاه الفراش الزوجي تدفع المرأة إلى اللا مسؤولية تجاه جسدها لأنها تشعر بأنه إحدى خصوصيات أو عورات هذا الفراش الزوجي. أنا لا أتحدث عن ذاتي وكان يمكن أن يأتي هذا الكلام علي لو تعرفتُ على غيرك ودفعني إلى هذه الهوة. لقد أنقذتني من كارثة كانت ستحل بي تلك الكارثة التي دفعني إليها زوجي دون أن يدري وما زال لا يدري . لا توجد امرأة تعهر من تلقاء نفسها كل عاهرة دفعها رجل إلى العهر، المرأة التي لا تحترم زوجها تخونه مع أقرب رجل إليه لتعبر بذلك عن عدم احترامها له أمام نفسها ، أو لأقل لتهينه في نفسها . كنت قد تعرفت على امرأة قالت لي بأنها تعرفت على زوجها في مأوى للدعارة ، لقد أحبا بعضهما وغامر الرجل بالزواج منها رغم الرفض الشديد الذي لقيه من أهله ومن المجتمع ، لكنني عرفتُ بأن تلك المكرأة غدت قديسة لزوجها ، كانت تقول لي : كم جعل حبي لهذا الرجل ذاك الماضي مقيتا ، إنني أصلي من أجل أن أتطهر من كل ذرة من ذرات ذاك الماضي الأثيم ، أجل يافقيهي الصغير ، لقد كان الحب هو الذي يطهرها ، هو الذي يدفعها إلى الصلاة ، لقد كان الحب ٠٠ الحب فحسب ٠ وكنت أرى امرأة لم تخرج من منزلها قط ، ولم تتعرف على رجل قط ولكن بعد الزواج شاءت لها الظروف أن تلجأ إلى ذاك المأوى الذي خرجت منه المرأة الأولى ٠ بينما أنت لا تهيئ خطوة واحدة للمسير في درب غير دربك. الخارج كله يؤدي إليك كل الدروب تؤدي إليك ، فأنت

حتى لو طردتني سأجيء. ما يؤدي بي إليك هو أنني لا أشعر بأي إثم وعندما لا أجيء يحتلني الإثم .

- لستُ بحاجة إلى أن أكذب أشعر حقيقة معك شعور الزوج تجاه زوجته وعلى ذلك فلا يمكن لامرأة أن تقتحم : سماح كوني واثقة بأنك المرأة الوحيدة التي احتلت هذه المكانة فلم يسبق لي أن تزوجت حتى أقول لامرأة ما : زوجتي ٠ فقط أقولها لك وللمرة الأولى ولأول امرأة .

- وأنت لاتسلني عن ماض لم يكن لك فيه حضور ، سلني عن حاضر أنت فيه كل الحاضر ، عن حاضر أنت فيه مرآتي وأنا فيه مرآتك ٠ الآن أزداد إصراراً لأحمل منك وأربّي ابنك مدى حياتي سأحمل منك حتى لو قامت القيامة.

تعالي ياسنيورة إلى حضني ، دعيني أضمك بكل مافي جسدي من قوة
ضحكت وقالت : سنيورة ، ومن أين أتيت بها اليوم
قلت : رأيتها على الأرض
قالت : ظننتك التقطتها من السماء ٠

ثم أنشدت :
لرائحة جسدك تتفتح أنوثتي
كما تتفتح الوردة لصباحات الربيع الندية
تعال يا سيد الغجر انزع عني هذا الثوب بيديك المباركتين.
انزع عني الخاتم والقيراط
واحمل جسدي على ذراعيك بكامل عريه
لقد حلقته لك هذا الصباح
إنه في ذروة التفتح

هاهو يستسلم لرائحتك إلى آخر ذرة
اقذف بجسدك عليَّ تكاد الرغبة تقذفني إلى رابع سماء
إنها أثرى لحظات العمر لم أترك شيئاً لأنثى.. هذه هي عصارة الحياة الحقيقية.. كم أنت سخي أيها الرجل
شكراً على كل هذا السخاء.
- وكم أنتِ سخية أيتها المرأة في الجنس
- لأن أعظم شيء يمكن أن تقدمه المرأة للرجل هو الجنس.
- والحب ؟
- الجنس هو أرقى أشكال الحب دعني في لحظاتي السرية هذه، جنسُنا هو الذي يبني حبنا، حُبُنا سيذبل بلا جنس سيموت، الجنس هو الذي يمده بنطاف الحياة.

في لحظات الإنعاش هذه تتحول كلمات العالم إلى أشباح كل الكلمات تبدو واهنة ، قدسية الجنس أنه لا يكتفي بإنعاش الجسد وكل الأعضاء، بل ينعش الروح أيضاً إنه ينقذ الروح من لحظات البؤس والعدم وسيبقى الجنس خالداً خلود الروح. جسدي وجسدك ربما التقيا أو ربما سيلتقيا في مكان آخر وزمان آخر لكن هذا لا يهمني بقدر ما تهمني اللحظة لأنها الحقيقة الوحيدة الآن، ولأنني أعيشها رجفة رجفة ٠ أنا حقيقة هنا وأمارس فعلاً حقيقياً، هذه هي اللحظات الأكثر سمواً التي يعجز العالم كله أن يقدّمها لي:

عندما تشرق اللحظة سأشرق من وردتكِ الخالدة كالملايين الذين يشرقون من الوردات كل لحظة في زوايا الخيم البائسة. ستعلو صرختي الغجرية الأولى إلى آخر فضاء وأنادي كتائه: أنا غجري من كبد غجرية عندما أسقط من وردتك المقدسة للتو سترفعينني إلى صدرك وترضعيني حليباً غجرياً طعماً ألف عام وسأنهض كالملايين من أطفال الغجر في بقاع الأرض أتعلق بجلبابكِ الطويل وأركض خلفكِ في الطرقات تطرقين

الأبواب تدخلين باباً تخرجين من باب وحينما يهلكِ الركض أحمل عنكِ الكيس أريحكِ من ثقله للحظات عندما تشرق اللحظة عندما أشرق منكِ سأترعرع على الحرية الغجرية الأبدية ستغسليننني غسيلاً غجرياً أبدياً بمياه الغجر لمرة واحدة في حياتي ولن تمحو آثارها أبد الدهر.

سأنتقل برفقتكِ من فسحة أرضية في أطراف المدن ومداخلها إلى أخرى من حي إلى آخر من مدينة إلى أخرى سأساعدكِ في نصب خيمتنا الجميلة أقلع الأشواك أكنس المكان المحاذي للنهر أرشه ببخات مياه آسنة أعينكِ في خيط كيس من الخيش يتعلق بكتف مثل حقائب الجنود الذين يلتحقون بكتائبهم للتو وفي الليل ستروين لي حكايا الغجر الساحرة عندما أغفو إلى جانبكِ في خيمتنا وفي الصباح سأتعلم صناعة الأسنان الذهبية كملايين الغجر في كل بقاع العالم.

عندما تحين اللحظة سأترعرع على الحرية الغجرية سأتذوق ذاك الدفء الغجري الخالد سأرث عنك ذاك السحر الغجري المجنون وستعلمينني لغتنا الرائعة الخاطفة التي لا تُقرأ ولا تُكتبْ اللغة اللامعترف بها لغتنا الشاذة "لغة العصفور" اللغة الخالدة التي لا يتعلمها غير الغجر سأمارس أقصى أبعاد الحرية سأعانقها وسأعيش لحظاتها التي تسحرني وستغنّين لي أغنيات غجرية مسائية سأتمسك بغجريتي الجليلة بميراثي الوحيد بكِ بكل حواسي لن أتركِ للحظة واحدة سأصرخ في أذنكِ بطفولة: إنني ابنكِ غجري حتى العظم وسترفع غجريتي - التي استمد دمها منكِ - رأسي أفتخر بغجريتي لأنها رائحتكِ التي تسحرني عندما أولد منكِ عندما تحين اللحظة.

هاهي رائحة الجنة تفوح من الركن الأكثر أمنا وسكينة ، هاهي الجنة ترسم حدائقها وأنهارها في هذا الركن السحري ، وهاهو نهر عذب ريان يجري في أشجار الحواس ، ومن مطرح غير معلوم تنبعث أنغام طبيعية تطرب عصافير الروح ، وثمة مائدة بحجم ربيع عامرة بما

تشتهيه النفس ، وثمة حورية بهية قاصرة الطرف تهرب من خيمتها وتحط في هذا الجناح الذي أركنه ٠في لحظات ما من هذا العالم السحري أدع كل شيء وأنشغل بفك أزرار قميص فاتنتي ٠٠ يستغرق انشغالي ساعات ساعات ٠ كل زر من الأزرار فيه مسير حديقتين ، وفي ذروة انهماكي يلتبس علي الأمر، فأزرر ما فكته أناملي التائهةمني، وأكتشف بأنني أعيد فك أزرار كرتين ٠

هاأنذا أذوب قطرة قطرة في ركني الخالد

هاأنذا أنبني نبضة نبضة في عالم كله جسد٠

كل ما في المكان يشتعل بالجسد ، عندما مددت يدي إلى وردة في حديقةالبهاء، ملأت جسدي كله أريجا يبدو لي أنه سيلبث يسري في شرايين الروح إلى أبد الآبدين ، وعندما شربت بفمي شربة من نهر يجري في إحدى تقاطيع الجسد ، بدا لي أنها شربة العمر التي لاظمأ يخلفها ٠الآن اكتشفت قيما أخرى في مملكة الجسد البهية ، الآن اكتشفت أن ما في مكنونات الجسد لهو أثرى من كل موجود دونه ٠

ليس بقدرة موجود من الموجودات المحسوسة وغير المحسوسة أن يحقق هذا الإنسجام الكلي الذي يحققه الجسد للجسد ٠ هنا لاسكن للجسد إلا منزل الجسد

هاهو الجسد يتخاطب مع الجسد بلغة الجسد

هاهو الجسد يستجيب لنداء الجسد

هاهو الجسد يحتفي بحضور الجسد ، ويطرب الجسد بلحن الجسد الذي يعزفه جسد لجسد مرة واحدة في العمر ٠

هاهو الجسد يحتفي بحضور الجسد ، ويطرب الجسد بلحن الجسد الذي يعزفه جسد لجسد مرة واحدة في العمر ٠

ما أزال أمضي في بساتين فاتنتي التي تشرق مع كل خطوة نورا وضياء وتفتحا ، وأظن خطواتي تتيه عن حواسي ولا أعلمها في أي تيه

تخطو، وهي كذلك تنظر إلي نظرة حسناء تاه جسدها عنها ، وبقدر مساحة تيه جسدي عني ، بقدر ما يسكنني جسدها ٠٠ يسكن كل حواسي حاسة حاسة ويجري فيه دمي ونبضي ٠

كل ما يربكني قلقا هو أن أفقد هذا العالم السحري بعد لحظات ، لا بد أن أفقد هذا العالم بعد لحظات ٠٠ ولا بد لأصابعي أن تعيد زر الأزرار المفكوكة ، وعندها سأدرك أن ليس للجسد إلا الجسد ٠٠ ليس من جسد لا يبحث عن دفء جسد ، جسد لا يبحث عن جسد ، لهو جسد بلا جسد ٠

في الأول من شهر نيسان خرجتُ مبكراً إلى موقع نصب الخيم التي ستأتي على دفعات اليوم، وانتظرت من السادسة حتى العاشرة صباحاً على طريق "رأس العين" العام وصلتْ سيارة شحن تمهّلتْ في الساحة ومالت إلى فسحة الأرض الخالية لحقتها ، رأيت سماح تجلس مع نساء في مؤخرة السيارة على الأغراض. فرملت السيارة الضخمة ونزل رجل واحد وكان الوحيد الذي يجلس بجانب السائق ، ثم هبطت النساء وهن يقفزن ، دنوت إليهن ألقيت السلام ونظرتُ إلى سماح مستفسراً ما إذا كان هذا الرجل زوجها فقالت بصوت مرتفع وهي تنظر إلى النساء اللواتي نزلن إلى الأرض جميعهن للتو: زوجي خائف لا يقود دراجته بسرعةيبدو أنه سيتأخر .

وأجاب الرجل : سيصلون بعد قليل ، لابد أنهم عرفوا بأننا وصلنا الآن .

وقفتُ مع الرجلين وأنا أختلس النظر من سماح الجالسة تحت فيء السيارة وتحدثا عن الأجرة وتأخير السائق، بينما كانت غجرية تتطبطب

على طفلتها التي تنشج محاولة تهدئتها وهي تشدو لها بنغمة أوبرالية عميقة الترنيمة الغجرية :

نامي ياطفلتي نامـــي
اسمعي أمك ولاتبكـــي
خيول جميلة ستأتي
بأعراف خضراء
وسيأخذونك بعيدا
حيث كل شيء هناك أزرق وأخضر
حيث العسل يتقطر من السماء
وحيث تسيل جداول اللبن

وبعد نحو نصف ساعة وصلت دراجة نارية ذات ثلاث عجلات يقودها رجل هزيل أصفر الوجه في نحو الثلاثين من عمره وبجانبه رجل أسمر ضخم الجثة وخمسة رجال يقرفصون خلفهما، فعرفتُ بأن السائق هو زوج سماح . وقفتْ الدراجة بمحاذاة السيارة تقافز الرجال وبسرعة خاطفة باشروا في تنزيل حمولتها وساعدتهم حتى آخر قطعة عندئذ انصرفتْ السيارة، فناقشوا طويلاً على المكان الذي سينصبون فيه الخيم واتفقوا بأن المحافظ سيطردهم إذا ما نصبوا في موقع السنة الماضية.

وانتشر الرجال في الساحة استقروا على نصب الخيم خلف موقع العام الماضي وأشار كل رجل إلى مكان خيمته.. بحيث لا يراهم من يسير على الطريق العام وكلفوني بهذه المهمة فوقفت على الطريق العام ورأيت الوادي يبتلعهم جميعاً. وبسرعة خاطفة حملتْ كل امرأة مكنسة وأخذت تكنّس موقع خيمتها.. ساعدتُ الرجال في ربط حبال الخيم

ونصب الأعمدة.. راودني شعور بأنني أنصب خيمتي.. وأن الأمر يعنيني بالدرجة الأولى.. بقينا نحو ساعتين في الغبار والصراخ والسباب وأنجزنا نصب سبع خيم.. فدبّت الحياة من جديد في الموقع وانتشرت النساء انتشر الأطفال.. الدجاج.. "دجاج الغجر". كلاب الغجر.. قطط الغجر.. أصوات الأغاني الغجرية من آلات التسجيل: "حور مقصورات في الخيام".

لقد صنعوا حياةً من هذا الموقع الميت في ظرف ساعتين وتقافزت حكمتهم الشائعة على ألسنتهم "لهروار..بهار"*.

لكن ما استولى على كياني هو هذا السحر الذي تجيده سماح في المشي وضبط أمور الخيمة.. لم تكن هناك من تجيد مثل هذه المشية الغجرية بين الخيم التي بدت كالنجوم أمام ناظري.

في صبيحة يوم الجمعة دخلتْ سماح وقد أشرق وجهها. جلستْ على السرير وقالت: لدي ما يفرحك..

قلت: ماذا ؟

قالت: ستطيّركَ الفرحة.

قلت: لا تقولي لأنني لا أريد أن أطير اليوم ، أريد البقاء هاهنا بالقرب منك ٠

قالت: سأنام الليلة وغداً هنا !!

قلت: صحيح ٠٠ وقبلتها : كيف ، ماذا حدث قولي بسرعة.

---

* كل واد نطأه نجعله ربيعاً.

قالت والبسمة الصباحية تملأ فمها: أقنعته بقصة اخترعتها كي أشبع منك وتشبع مني سأفعل أي شيء من أجل حقنا في اللقاء قلت له: أن امرأة تريدني أذهب معها إلى القرية من يوم الجمعة إلى يوم الأحد لأغسل صوف ابنتها العروس وأساعدها في الحوائج الأخرى وستكافئني بألف ليرة. واتفقنا على ذلك سأمضي عندك ثلاثة أيام وسأعطيه من خزانتي ألف ليرة حتى يصدق هل ستخطفني لأعيش معك إلى الأبد أنا خائفة في كل مرة أجيء لا أصدق بأنني سأراك أو أتخيل بأن عندك غيري وسأطرق ولن تفتح لي فقط عندما تفتح أطمئن .

قلت: لستُ سعيداً لأنكِ كذبت عليه لا أريدكِ أن تكذبي.

قالت: ماذا تريدني أن أقول له ؟

قلت: بأي شأن ؟

قالت: بشأن نومي معك

قلت: ومن طلب هذا..؟

قالت: ألا تريد ؟

قلت: لكن ليس مقابل أن تحولي نفسكِ إلى كذابة، ما دمنا نلتقي فلا داعي للكذب. أنت هكذا ستصغرين أمام نفسكِ وأمامي وأمامه وستخسرين.

قالت: هذه آخر مرة أكذب فيها.. أمّا الخبر الآخر فأنا خائفة من قوله.

-: من أي شيء خائفة ؟

-: منك.

-: وهل ارتكبت خطيئة بحقي ؟

-: لا..

-: قولي

-: أنا حاملة منك.

لم أكن أعلم أن خطيئة واحدة بمقدورها أن تخلق لي مشكلة سأعاني منها مدى حياتي وتقترن بي ، تلاحقني كالشبح الذي لا يتحول إلى حقيقة ٠ ما لا أتصوره في هذه اللحظات الحرجة هو رؤية ابني في خيمة يعاني سوء التغذية والأمية،، لقد أخطأت ليست هذه هي المشكلة ، الطامة أنني لا أستطيع أن أصحح هذا الخطأ ولا أرغب في تصحيحه، لا أتصور حياتي بدون سماح هل الزواج سيحل مشكلتي ولكن كيف ، هل أبحث في الطرقات وأصرخ بأنني أبحث عن زوجة تبادلني حجم حب سماح أنا مقتنع بسماح كزوجة وهذه القناعة تزيدني اشتعالاً تزيدني احتراقاً ربما لأنها متحررة أكثر مني وتعرف العواقب السلبية، تفضّل أن تكون عشيقة لي .

- سيتخلى كل أهلك عنك عندما يعرفوا بأنك تزوجتَ غجرية مطلقّة.

- ولكن لا امرأة في الكون تصلح أن تكون زوجة لي أكثر منكِ لا امرأة أحق منك.

- الحياة ليست امرأة ، لأنني أحبك ،، الحياة علاقات اجتماعية متبادلة ، لأنني أحبك ،، بقوة هذا الحب أرفض أن أقضي عليك بقوة هذا الحب سأتخلى عن إعانتك لتحقيق هذا الهدف وكلي رغبة لتحقيقه أجل أنا كلي رغبة كل ذرة من جسدي تهتف وترغب.. لن تجد أحداً يسامحك على فعلتك هذه.. سيمقتون حتى أطفالنا سيقولون لهم في أحسن الأحوال: يا أولاد الغجرية.

- إن قبلت.. والدك لا يقبل.. وإن قبل والدتك لن تقبل.. وإن قبلت والدتك فإن عمك لن يقبل.. وإن قبل عمك فإن خالك لن يقبل.. وإن قبلوا جميعاً فإن الجيران لا يقبلون لأنك لستَ غجرياً.. لأنني غجرية.

وفجأة نهضتْ وتناولتْ كيسها الأبيض.. أخرجت منه كيساً صغيراً وقالت: صأصنع لك طعاماً لا تعرف صنعه.

قلت: ماذا ؟
أفرغت الكيس في صحن كبير وقالت: "كبة"
- من أين جلبت "السميد" ؟
- هل تنسى بسرعة بأنني متسولة وأكثر البيوت تعطي السميد والبرغل والسكر والشاي.
نظرتُ إلى "السميد": وهذا من أي بيت ؟
قالت: شحذته من عدة بيوت.
وأردت – من غير قصد – أن أتعمق في الحديث وبدون رغبة مني: وعندما يكثر..؟
قالت: أبيعه إلى الدكاكين.
قلت: كله
قالت: بعد أن أرفع مونة البيت منه.
وبعد تعارفنا أعمل حسابك أيضاً من السكر والرز والشاي حتى توفر نقودك. لا أعرف أي تفسير لهذه المسؤولية تجاهك وأعرف بأنني سأكون كمن غرس شجرة وبذل جهوده في رعايتها وأفنى سنوات عمره وهو يسقيها ويهتم بها وعندما تثمر سيأخذها غيره وينعم بثمارها وكل هذا أمام عينيه وهو يعجز عن فعل شيء.. ولكن عزائي أن عظمة الإنسان تكون في حجم إخلاصه وصدقه. وإننا مهما فعلنا من أشياء في هذه الفسحة وندمنا على أشياء فعلناها فلن نندم على لحظات الصدق والإخلاص التي عشناها.. أنا لستُ قديسة.. ولكنني تجردتُ من تاريخي. وإذا كان الله يحب الصدق فإنه سيغفر لي لشدة إخلاصي وصدقي وحرصي على التخلي عن الماضي السيئ.. أجل أيها الفقيه الصغير لقد كنتُ سيئة ومشوهة أخلاقياً ونفسياً وفكرياً وجسدياً.. الآن أدرك حجم سلبية شخصيتي التي لم أفكر فيها ذات يوم ولا في إصلاحها ولكن أنا واثقة بأن الإنسان يتغير إذا أراد.

- سماح، وأنا لا أنظر إليكِ إلاّ كزوجة.. أنتِ زوجتي على سنة المضطهدين والمقموعين.

- لا أريد أن تعدني بما يبعدك عن العالم كله لتكن معي.. وحتى لو حدث هذا – وأنا واثقة من لا حدوثه – فإنه لن يدوم غير أيام قليلة. لذلك فمن الأفضل ألا يحدث وألا نفكر في حدوثه ولا لحظة واحدة.

لا أعرف لماذا تنظر إلى مجتمعنا هذه النظرة السلبية إنها – وهي تتحدث عنه – تكاد تجرده من إنسانيته وأنا واثق بأنني أنظر النظرة المعاكسة إليه تماماً وإذا كانت القضية في التسول.. ففي معظم المجتمعات والأقوام المدنية وغير المدنية أناس يتسولون وفي موقف ما يمكن أن يتسول أي شخص في العالم.. وقد أفهمتني سماح بأن الغجر ينقسمون إلى أقسام.. ومن هذه الأقسام لا تتسول.. وتعيش على إحياء الحفلات الفنية والشعبية ويظهر من هذا القسم مطربون شعبيون على قدر كبير من الموهبة.. ومنهم من يقومون بأعمال مختلفة كصناعة الأحذية ويملكون بيوتاً.. ويمارسون معظم العادات والطقوس الدينية..

وعندما يتوجه الحديث إلى عاداتهم تقول: الغجرية عندما تلد لا تلبس ابنها ثياباً مخيّطة لمدة عشرة أيام.. فقط تغطّيه بالقماش.. وعندما تحمل تصبح نجسه بالنسبة لزوجها إذ لا يقترب منها.. ويعتبر كل ما تلمسه نجساً حتى تضع حملها.. فيحرق كل ثيابها وما تم استخدامه بما فيه الفرشة التي وضعت عليها وعلى الأغلب الخيمة التي وضعت تحتها.

إننا نؤمن بالأرواح الشريرة التي تحاصر الإنسان لذلك نعيش بطلاقة.. ونستخدم الزينة والألوان لأنها تبعد عنا الشر.. فالمرأة الغجرية عندما تمشي يجب أن تصدر منها أصوات مختلفة مما ترتديه من زينة أو حتى أصوات النقود المعدنية التي تبعد الشر والعفاريت.

وعند الزواج يمزج الفتى دمه بدم عروسته عندما يجرح كل منهما معصمه ويلصقها بالآخر. عندما يصنع الغجري طعاماً شهياً فإنه يقف

أمام خيمته وينادي بأعلى صوته: يا غجر أقدموا للطعام. والذي يعتذر يجيب بأعلى صوته: ليأكل الله معك. لأن عدم الرد دليل على وجود خصام. وإذا رأيت الغجري يرتدي ثياباً متسخة ولا يهتم بنفسه.. فإنه عندما يموت ينظفونه جيداً ويلبسونه أنظف الثياب ويضعون في جيبه مشطاً وقطعة صابون ومنشفة وعلبة تبغ ثم يدفنونه.

وأحاول أن أقنعها أن السكن في الخيمة أفضل منه في بيوت الإيجار بالنسبة لمن لا يملكون بيوتاً.. ومعظم هؤلاء يحسدون سكان الخيم غير أنهم ينحرجون في إعلان هذا الحسد.

وتجيبني: أنتم زرعتم هذا الإحساس بالنقص فينا فعندما توبخون شخصاً سيئاً أو تنعتونه، تقولون له: "ولك.. أنت كالغجر" هذه العبارة تردد صداها في أذني كلما أراك.

الآن بأي حروف أعبّر عن رغبتي في أن أعيش هذه الحياة شعرُكِ الغجري المجنون / الذي يسافر في كل الدنيا / سيحلّق بي بين الغيوم يحررني من الالتزامات والعمل والمفاتيح والأبواب والتواريخ صوتك الغجري يخفّف مآسي العالم حريتك تضيء حجم السجن الذي أعيش فيه.. تعالي يا ضوئي.. لن أتركك تبتعدين عني ثلاثة أيام.. سيبقى ذاك الباب مقفولاً.. تعالي يا سيدة الغجر بكل غجريتكِ وأقذفيكِ في نهري.. أقذفي كل ما فيك من حواس ونبرات وأصوات وأعضاء لن أترك رعشة لرجل ٠ وتتعرى على السرير أهتف : ذاك الجبل أزيحيه تقول : أي جبل ٠ أشير إلى /الشورت/ : إنه أكبر من جبل ٠ويتزحلق بحركة سريعة إلى الأسفل الآن لا شيء يحجز بيننا ماتت كل المسافات كل الأعضاء تعانق الأعضاء اختفت كل الحواجز.

الجسد الثري ينفجر جنساً.. تنزف الشهوة منه.. تنسى كل شيء.. وتتذكر شيئاً واحداً هو أنها أنثى وتريد أن تمارس كل أنوثتها وتدرك إلى أي مدى هي أنثى تنفتح وردة خديها.. يشرق النهدان تترنح الروح

وتفوح رائحة الجنس الزكية من إبطيها.. تهمس : هكذا سنعيش حياتنا المقبلة.. يا لروعة عنفوانك إنك كحصان فوقي .

- ياه.. يا لسخاء الأقدار.. كم أحب فمك.. يا سماح.. "إن فمك كعصابة حمراء على قلعة من العاج، إنه كتفاحة قطعتها موس من العاج، وأزهار التفاح التي تترعرع في الحدائق والتي هي أشد احمراراً من الورد، لا تصل إلى حمرة فمك. وأشرطة الأبواق التي تعلن وصول الملوك، ليست أشد احمراراً. وفمك أشد احمراراً من أقدام أولئك الذين يدوسون الخمر في مكابسها. إن فمك كغصن المرجان الذي عثر عليه صائدو الأسماك في شفق البحر. المرجان الذي يهدونه إلى الملوك. إنه كالعسجد الذي يعثر عليه الموآبيون في مناجم موآب والذي يسلبه الملوك منهم.. دعيني أقبل فمكِ".

يبدو بأنني لن أشبع.. من التاسعة صباحاً إلى السادسة مساءً ركض الحصان في حديقة الربيع خمس مرات .. وفي العاشرة ليلاً احتلته الرغبة للمرة السادسة تجاه ساحرته التي تذيبه مع كل نظرة مع كل حركة ٠ لم يكن يصدق أن كل تلك الطاقة كانت في جسده كنت أظن بأنني جربت كل شيء ولن أرى ما يفاجئني ويدهشني ٠الليلة.. أجل الليلة ويالها من كلمة رائعة / الليلة / عندما يلتحم فيها جسدان ، ويالها من كلمة ميتة عندما يكون الجسد وحيدا يرنو إلى المجهول ٠ أشعر بأنني أكثر اتصالاً مع أسرار "الإنسان" وسماحتي تلتصق بي ، الحياة ليست فارغة ولأن الإنسان ابن الحياة فهو أيضاً ليس فارغاً.. إنه مليء ولا يمكن له أن يكتشف كل طاقاته وقدراته حتى لو عاش ألف سنة ، هذه هي المرة السادسة تحتفي بنا دون أي جهد أهو الحب الذي يختصر مع كل مرة أحس بأنني ألمسها للمرة الأولى .

تعشينا في الواحدة ليلاً وواصلنا السهر على التلفزيون إلى الثالثة عندئذ شعرت بشهوة ولكن جسدي الذي بدأ يرتجف لم يشجعني

وبدا الحصان مع انتصابه البطيء لخوض الجولة السابعة.. بدا كرجل خرج للتو من تحت سوط بعد أن تلقى ألف جلدة على جسده ٠ مجرد انتصابه بدأ يؤلمني.. وامتد الألم إلى إحدى عروق رأسي.. وأيضاً بدأت معدتي تغلي.. وغفوت.. استفقت في الثامنة صباحاً.. وعندما لمحتُ سماح عارية بجانبي انتصبتْ كل حواسي، وقعتُ عليها بالقبلات.. كجائع لن يشبع.. ولا أجد أي تفسير لسقوط دموع من عيني.. ولا أدري أي اسم لهذه الدموع.. غير دموع الجنس.. وعرفت أن سماح ما احتملت منظر الدموع في عيني ٠ عندما أدارت ظهرها تحول جسدي كله إلى شهوة.. كل الأعضاء ركبتها الإثارة.. وكأن الاستدارة وزّعت الشهوة على كل الجسد.. فأصبح لمسها بأي طرف يكهرب حواسي .. وصرت ألمسها بأطراف أصابعي وأحس بلذة.. حاولت أن أدير وجهها إلي.. وأبت قائلةبأن الجنس صباحاً قبل الطعام يقطع ماء الظهر ولن تدعني قبل أن أنهض إلى الدكان وأشتري حليباً لتصنع الرز مع الحليب الذي يعيد الطاقة التي فقدتها ليلة أمس، ولكنه المنتصب الذي لا يستقر.. وأثارني منظر الجسد العاري من الخلف.. ومساحة الظهر السمراء ٠ احتضنتها بقليل من الإصرار.. إلى أن وجد الحصان له مكانا آمنا أفرغ فيه بصمتين باقيتين للذكرى ، ولبث لا يستطيع الخروج قبل ألف صرخة ألم.

نهضتُ بعد ساعة من المحاولات.. ارتديت جلابية على عريي وخرجت.. اشتريت حليباً وبيضاً ورزاً ولتراً من الويسكي وعلبة عسل وعدت حاملاً كل هذه الأكياس المملوءة ٠ صنعتْ سماح قبل كل شيء الرز مع الحليب ثم قَلتْ صفار سبع بيضات مع الثوم والبهارات ، تناولناها ثم أخذت تمد إلى فمي ملعقة عسل صغيرة قائلة بأنها / تحلاية / وبغتة ضحكت ٠ قلت : مالخبر ؟ استغرقت بالضحك وقالت : تذكرت امرأة قالت لي ذات يوم بأن زوجها يضع العسل على فرجها ويبدأ يقبله

ساعة كاملة ٠ كانت تلك المرأة شغوفة بأن تروي لي طقوس الجنس بينها وبين زوجها ، كنا نجلس ساعات وهي تحدثني بدقة فائقة ، وبعد ذلك ترفع ثوبها وتريني الاحمرار الذي أضفاه عليه زوجها بقبلاته وهي تهمس : لاتقولي ذلك لأحد ياسماح ، عيب ٠ بعد قليل صنعت إبريقا من الشاي بالعسل ٠ بعد استرخاء قلت لها بأنني في هذه المناسبة أدعوها لاحتساء الويسكي، في الثانية ظهراً شوتْ شرائح اللحم وصنعتْ سَلَطة.. وشاركتني في شرب الويسكي.

وبعد أن ثقل رأسها.. وشعرتْ بنكهة السكر امتدتْ كفي إلى ساقها.. انتصب النائم بطيئاً بطيئاً وهو يتألم مع كل حركة نهوض واندفعتْ الشهوة إليه.. نهضتُ غسلته.. وتركته نحو ربع ساعة في الماء الفاتر يغتسل ويتهيأ ويربط الأحزمة: المرأة الجميلة لا تُشبع مهما منحتْ.. كل نظرة إليها تثيرني من جديد بعنفوان المرة الأولى كل ما فيها يسحر.. أجل أنا أحب هذه المرأة وأحبها أكثر عندما تمنحني جسدها الثري العامر بالأنوثة والشهوة والنضج والجنسي مثل أشجار الربيع العامرة بالثمار والعصافير والبلابل والأوراق الخضراء الندية.

وبدأت تلمسني برغبة ،، حملتها على ذراعي كطفلة صغيرة ووضعتها على الكنبة.. نكهة الكنبة أعظم من السرير. نصف جسدها العلوي يتمدد على الكنبة وتستقر رأسها في الزاوية.. والنصف السفلي يتكئ بجسدي.. تعرقتْ.. ارتخت عيناها.. وبدأت تتأوه والسكر يضفي سحراً جديداً على تأوهاتها وتتمسك بكفيها برأسي تمتص شفتي.. وفجأة تأوهتْ بصوت مرتفع وسحبت جسدها بقوة . قالت : يكفي .

تركتها على الكنبة نحو ربع ساعة وعدتُ إليها أثرتها مرة أخرى بعد أن كانت شبه نائمة وأحسستُ بنشوة لبثتُ مستلقياً على الجسد إلى الثامنة مساءً حتى غدت تلفظ كلماتها الأخيرة : دع عني غريزتك العدوانية يافقيهي الصغير . وفجأة جلستْ في السرير وقالت : هاهو

مـاؤك نـزل منـي للتو ٠ ومدت يـدها إلـى خرقـة مسحت بهـا آثـار المـاء عندئذ استفقنا وقد صحونا من السكر استحممنا بماء بـارد ورتبنـا لبرنـامج السهرة.. الآن فقط أصدق بـأنني حـي وأمـارس فعلاً حقيقياً وأعيش حيـاة حقيقيـة حافلـة تنـدفع الحيـاة كلهـا فـي عروقـي ربمـا حيـاة عشـرة آلاف شخص في هذين اليومين المجيدين الحافلين يبدو لي بـأنني عشت عشرة آلاف سنة ، الحياة كلها اندفعتْ إلى عروقي كالطوفان .

يا نبعي يا كنزي يا جوهرتي يا رحيق الحياة يا بحر الخصـوبة.. أنتِ من وهبتْ كل هذه الحياة.. أنتِ من اكتشفتْ كل هذه الحـواس ومـدتها بالنبض والملح والدم.

المجانين ، الحمقـى الـذين لا نسـاء فـي حيـاتهم ينظـرون إلـى الحيـاة بسـوداوية قاتمـة الـذين لا جنس ي حيـاتهم ولا جمـال.. ولا امـرأة جديـدة كل شهرين.. يعجبهم أن يعدونني بسوداويتهم ويفهمونني بأن الإنسـان هو شخص واحد مكرر.. كل أفعاله مكررة وأنـه يُضـحك علينـا منـذ أمـد بعيد أما بالنسبة لي فأرى كل ما في الحياة جديداً لـم يجربـه غيـري ، لقد مـروا بتجارب مشـابهة مـع نسـاء مثلاً وعلـى موائـد سكر احتفائيـة ومتـع السفر والسهر والعلاقات الجديدة والسباحة ومتعة الإيواء إلى الفراش في سـاعة متـأخرة ومتعـة الاستيقاظ ٠ لقد مـروا بكل مـا اكتشـفته الآن ولكـن هل عاشوا هذه التفاصيل التـي أعيشـها.. أجيـب فـي أذن سماح : لا.. لأن كل شخص مستقل عن غيره بصوته وتفكيره وشكله وبصماته ومزاجـه ولـو أن هذا الذي يمتلك ذات مواصـفاتي قد مـات منـذ آلاف السنين فمـا معنـى حضوري.. أنا أعيش حياة حافلة أكثر منـه.. وأستمتع بمنجـزات عصـري وفق طريقتي الخاصـة.. وأكتشف طاقات جديدة في الإنسان وفي الكون لم يسبق لغيـري أن عاشـها.. لأن الـزمن لا يتراجـع كـي يرجعنـي إلـى حيـاة مَنْ ماتوا وانتهوا.. بل يتقدم إلى الجديد والاكتشافات التي أراها تولد لأول مرة منذ اليوم الأول لمسيرة الإنسان.. وأقارن ذاتي بالشمس التي لو رأت

مسألة شروقها وغروبها عملية مكررة منذ ملايين السنين لقررت الانطفاء وما أنارت الأرض حتى لو دارت ملاين المرات حولها.. لكن الصباحات دوماً جديدة.. كل يوم يدفع إلينا الشروق صباحاً جديداً بمناظر جديدة بهية وحكايات جديدة وفصول جديدة وتواريخ جديدة. عندما أكتشف كل شيء وأقول كل شيء عندئذ فقط أموت وينتهي تاريخ الإنسان.

لبث البرنامج حتى الثالثة والنصف ليلاً وفي تلك الساعة رغبت في المضاجعة مرة جديدة لا أعلم إن كنت قد مارستها أم لا.. لأنني غفوت ولم استفق إلا في العاشرة من صبيحة يوم الأحد اليوم الذي ينتهي فيه البرنامج كله عند العصر وستعود سماح إلى بيتها.

صبيحة اليوم الثالث الجحيمي.. كل شيء يتحول إلى ذكرى.. أصدقائي في العمل سيسألونني عن سبب غياب يومين.. عند ذاك تخطر لي هذه الذكرى.. وقبل فعل أي شيء اشتهيتها وتركتني أضاجعها لأنها اعتادت على عنادي في مسألة الجنس.. ويمكن أن أكون ليناً في أي مسألة أخرى.. أفهمتها بأن الحياة تقترن عندي بالجنس.. والمرأة التي لا تمنحني الجنس لا تلزمني وتكون هامشية بينما المرأة الأساسية والأولى في حياتي هي التي تمنحني الجنس.

في الثانية ظهراً احتسينا ما بقي من الويكسي مع الغداء ومارسنا الجنس بشراهة حتى الخامسة مساءً.. حتى وهي ترتدي ثياب الخروج لم أتوقف عن الجنس المدهش.. حتى وهي تمد كفها إلى قبضة الباب الخارجي قائلة : دع عني غريزتك العدوانية ياقطبي • أريد أن أخرج معها في الشارع.. عند ذاك فتحت الباب بكف ورفعت سروالها الداخلي بالكف الأخرى وخرجتْ.

خرجت وهي تضيء الشارع كله.. المدينة كلها.. الجمهورية كلها.. تلك المرأة التي أشكو لها بصمت وبخفية كل ما أخفيه عن العالم. مثل

هذه المرأة تصادف كل عشرة آلاف سنة رجلاً محظوظاً واحداً في العالم.. ذات تاريخ عريق يمتد إلى عمق الزمن المنسي من العشق وحكايا خطف البنات ومظاهر الحب وأشكال اللقاءات السرية على السواقي المظلمة ولا يعجبها السعي لإيجاد الكلمة المضبوطة التي تلخص هذه العلاقة وهي تعيش تفاصيل لحظاتها السحرية، تعلمني كيف أكون مجتهداً ومكافحاً من أجل لقاءات كهذه وتتحول إلى قضيتي ، تلك التحولات الكبرى التي تصادف حياة الإنسان مرة واحدة في عمره ومن أجلها أتخلى عن كل ما هو سيئ وسلبي في حياتي لأنها حياتي ، يبدو العالم فارغاً بدونها ٠٠ هذه هي القضية الكبرى التي أناضل في سبيلها الآن.

في لحظات البؤس تقوم القيامة وتنفتح أبواب السعير أمام الروح وأنا لستُ عاجزاً عن فعل شيء، ولكنني أتعمد هذا اللا فعل ٠ كمن يحلو له أن يرى نتيجة حماقة قام بها ومع هذا الانتظار تزداد سماح جمالاً تزداد امتلاءً.. تزداد نضجاً وحلاوة ٠ تغيرت سماح أفكارها تغيرت مفهومها لصحتها غدا أوعى طريقتها في الحديث معي أو مع غيري ، مشيتها ، جلوسها ، صمتها ٠ استطاعت أن تتمرد على عادات مجتمعها لأنها تميل للدخول في مجتمع آخر ومثلما أنا أقلد ذاك المجتمع الغجري في حديثي وأفعالي تفعل ، إن من يعاشر غجرية بحجم سماح سيبقى يحترق بلهيبها مدى العمر.

جاءت سماح في الساعة السابعة من يوم الأربعاء وهي تعرف بأن اليوم عطلة رسمية في الجمهورية كلها. شطفت الشقة كلها حتى الدرج ، غسلت كل الثياب حتى المغسولة أعادت غسلها وكوتها ثم غسلتْ أغلفة الفراش والوسائد وعند الساعة الواحدة ظهراً تغدينا وفوجئتُ بها تخرج كل الأغراض وساعدتها في إخراج البراد والسرير والكنبتين والمكتبة وطلبتْ أن أحضر سلماً ولما أحضرته من بيت الجوار رأيتها تتهيأ

لتدهين الغرفة وهي في الشهر السابع من الحمل ، لا أدري ما خطر ببالها ومن أين حصلتْ على الدهان ولما سألتها
قالت: هل نسيت.. العيد بعد ثلاثة أيام ؟
قلت: هذا خطر على بطنكِ.
قالت: بدأت تقلق عليه أنا سعيدة.
وفي الرابعة والنصف فرغتْ من دهن البيت وانصرفت تاركة في أذني الصدى :
سأجيء صبيحة العيد.. أرجوك لا تذهب إلى القرية أنا مشتاقة أن تقبّلني قبلة العيد.
- أي حب هذا الذي تفجريه في أعماقي.. ليس بوسعي إلا أن أزداد تمسكاً بكِ أنتِ عصارة حياتي شكراً على كل هذا العطاء شكراً لكِ عليكِ.
واقترحت عليها أن تتوقف عن العمل إلى أن تضع فوافقت بدون أن تناقشني ، قالت دون أي تفكير مسبق وبحسم : "كما يريحك ستراني ".
ورأيتها فرصة لأن أبثها بموضوع استئجار بيت فقط لشهور الشتاء هنا بدل ذهابها إلى بيتها في "رأس العين" واستطعت أن أقنعها بعد الاتفاق بأنها ستدفع مما ادخرته في الخزانة في فترة الوضع والاستراحة في الشتاء وفي بداية شهر نيسان ستترك البيت مع زوجها ومولودها ويعودون جميعاً إلى خيمتهم ، ورغم قناعتها فقد أحسستُ من أسلوبها في التجاوب بأنني اعتديت على أهم المقدسات لديها "الحرية الغجرية" ورغم تألمي لألمها فإنني حاولت إقناعها بأن ذلك أفضل لابننا ولها وحتى نكون قريبين في هذه الفترة الانتقالية والحساسة في علاقتنا وحدث هذا بعد شهر من البحث عن بيت في إحدى الأحياء الشعبية القريبة من سكني بنحو كيلو متر واحد ونصف في حي "المشيرفة" الذي يضج بالغجر.

عندئذ اختفت سماح عني عشرة أيام ، عرفتُ بأنها وضعتْ ولم أصبر فذهبتُ إلي بيتها ، طرقتُ البيت، فتح زوجها قائلاً: ماذا تريد؟ ولأول مرة في حياتي أتبادل الحديث معه:

جئت إليك.

قال: ادخل

وفي الحوش أردف : ماذا تريد؟

فكرت بأي كذبة يمكن لها أن تدخلني الغرفة ليقع نظري على وجه سماح التي أكلتني شوقا

وقلت: جئت لتصلح لي سني .

فقال: أهلاً وسهلاً هذه هي مهنتي سأعيده كما كان.

قلت: لقد أرشدوني إليك .

ودخلت الغرفة ، رأتني سماح فانتفضتْ جالسة على الفراش وقد رفعتْ اللحاف إلى ركبتيها ، ورأيت وجهها يشرق كوردة في صباح آذاري، جلستُ في ركن فقال زوجها: هل ألبسه لك فضة أم ذهباً؟.

قلت: ما تريد.

ودنا إلي ، فتحتُ فمي.. أشرتُ إلى سن.. فمد إصبعه إليه وعاينه .

قلت: إنه يؤلمني ويمتد ألمه إلى صدغي ساعات الليل.

قالت سماح وهي تنظر إليه: ألن تضيّفه شيئاً.

فنهض واختفى

قلت بهمس: متى ؟

قالت: منذ يومين.

- ولد أم بنت ؟.
- ماذا تريد ؟
- لا أعرف.. قولي بسرعة

- لا.. عندما أجيء سأحضره معي
- أرجوكِ
- دعها مفاجأة..
- أرجوكِ قولي بسرعة..
- ألن تترك هذا العناد
- لا أطيق الصبر قولي
- ولد
- أريد أن أراه

ودخل زوجها حاملاً بيديه سفرة صغيرة عليها كأس شراب.. وضعها أمامي.

قلت: متى أجيء لتركّب السن ؟

قال: الآن سأبدأ

قلت: الآن مرتبط بعمل لقد عرفت البيت، سأجيء فيما بعد.

وحملت سماح الطفل في محاولة لأراه وضعتْ حلمة ثديها في فمه الصغير، ونهضتُ على الفور وأنا أتأمل المشهد وأتخيله في غرفتي.

لم يسبق لي أن عشت هذه المشاعر والآلام إنني سعيد وتعيس في لحظة واحدة.. كنت أتمنى أن يكون هذا الطفل لي ومن سماح علناً.. أن يعرف الجميع هذه الواقعة.. أي رجل في العالم ومنذ سنوات الطفولة يحلم أن ينجب طفلاً.. يحلم بذلك وهو طفل.. هاهو حلمي كحلم أي رجل تحقق.. ولكن على هذه المأساوية.. لا أستطيع أن أقول له: يا ولدي.. ولن يقول لي: أبي.. أعلم شيئاً واحداً هو أنني أنجذب نحوه بجاذبية العالم وأتمزق عندما أنظر إليه تمزق العالم. وكعادتها تدري أو لا تدري مشاعري تلهبني بسحرها الجديد.. وبحركاتها التي تذيبني لا أدري كيف

سأتخلص من هذا الفيضان نحوها.. ولا أخفي بأنني أدمنت هذه المرأة.. ولا أتصور حياتي دونها.. ولكن أنا واثق بأنني مريض.. أي مرض هذا.. لا أعرفه.. عندما دخلت سماح أول مرة بعد الولادة.. أول شيء قمت به قبل أن تضع الطفل وتجلس مددتُ كفي إلى سروالها وأنزلته.. لم أمهلها كي تضع الطفل من يديها.. وبشهوة العالم قذفتُ في أحشائها نطاف الروح.. لم أكن أعلم لذة العشرة بعد وضع المولود.. المرة الأولى بعد انقطاع عمر من الانتظار تلك المرة المدهشة التي لا تعوّض إلا مرة واحدة كل سنتين كانت أعظم ممارسة ولكنها انتهت دون أن أعلم وبعد جلوسها بعشر دقائق قفزتُ إليها مرة ثانية ولم تكن أبداً بلذة المرة الأولى بقيتْ حتى المساء.. ولم أشبع.. قالت بأنها ستمكث أسبوعاً في البيت ولا تخرج.. لكن في اليوم الثاني لم أطق الصبر لا أدري ما أصابني الشهوة تثيرني وتمنعني من العمل والنوم والاستقرار ساعة واحدة في ركن. في الرابعة مساءً اتجهت صوب بيتها.. لبثت أمضي أمام البيت حتى السابعة ولمحتها في الحوش خرجتْ إلى الباب.. دنوت إليها وقلت بأنني سأكون هنا في الواحدة ليلاً وعدتُ إلى البيت.. لم استقر.. الشهوة تكاد تقضي علي تسري بشراهة في عروقي لا أدري ما أصابني ، أي سحر جنوني لهذه المرأة التي تعرف كيف تغتال ضحاياها.. صرت على استعداد لفعل أي شيء لأصلها.. وأمارس معها أعظم لحظات الحياة٠٠ أن أفعل أي حماقة. ولبثتْ الشهوة مشتعلة تأكلني حتى الواحدة ليلاً عندما وطأتُ بابها وكانت تمد رأسها من الباب وعندما رأتني خرجتْ.. هرعتُ إليها وبدون أي كلمة أنزلتُ سروالها ٠ عندئذ أدركت كم أن سماح عظيمة ، وكم أنني سأكون تعيسا بدونها ، وكمن يختلس شيئا في ظلام حدث ذلك وركبتاي ترتعشان ، عندئذ أحسست براحة من خرج للتو من الطوفان.. نزلت دموع الجنس السخية من عيني وأنا أعيش نبضات الحياة الحقيقة.. لا أدري لماذا كل هذا البكاء.. وانتهيت بسرعة : / فليواسك الرب كما

واسيتِ أنتِ اليوم شخصا شقيا معذبا / ٠ أنزلتُ رأسي إلى الأسفل ومشيت عند ذاك تناهى صوت ولدي وهو ينشج طالباً حلمة ثدي أمه.

سماح تحمل طفلي إلي.. وتقذفه في حضني: إنه منك

- ومنكِ.

- أحبه فقط لأنه منك.. لا لأنه مني

- لأنكِ انجبتيه لي.. هل سيكون غجرياً

- إنه لا يشبه الغجر

- ليكن غجرياً ويعيش في بيئة الحرية مثل أمه أنا أقدّس الحرية بأي وسيلة كانت أمقت العبودية مهما كانت مبرراتها، الحرية هي حياة الإنسان.. الإنسان الغير حر هو إنسان ميت دون أن يعرف أنه ميت. أريده حراً ليقدّس الحرية .

- هل أنجب لك غيره ؟.

- لا، ولد واحد يكفي.. موتٌ واحد يكفي.

- سأذهب إلى الطبيبة غداً لتركيب "اللولب"

المشاعر الأبوية تستيقظ فيَّ لا يستطيع الأب أن يتخلى عن أبوته حتى لو كانت نتيجة زنا إنه ييقظ فيَّ هذه المشاعر لأول مرة في حياتي.. كما أن أمه فجّرت فيَّ كل تلك الطاقة العنيفة من الشباب.. هاهو يفجر طاقة أخرى نائمة.. طاقة نبيلة تشعرني بالالتزام والمسؤولية.. طاقة تجعلني أقلع عن كل سلبية في الحياة.. حتى عن السفر.

لقد أصبح عمر ابننا سنة.. وعندما يأتي يتقافز في الغرفة ويخلف ذكريات ملتهبة في كل ركن.. تعلقت به أكثر من تعلقي بأي شيء آخر.. ربما أكثر من تعلقي بسماح نفسها التي اعتبرها أعظم امرأة دخلتْ حياتي واستوعبتني.. لن أصدق أن ثمة امرأة تستطيع أن تستوعبني وتحتمل فوضويتي ومتاعبي وحماقاتي كما تحتمل سماح. ولا تدع لي مجرد

التفكير بالزواج.. لا أتصور بأنني سأتخلى عنها.. سماح أعطتني كل شيء بدون أي مقابل.. أعطتني كل شيء ولم أعطها شيئاً.

وهذا الشخص الجميل الساحر الذي يشبهني إلى حد بعيد يدفعني لأن أحب أمه بعنفوان لم أعرفه من قبل.. وعرفتُ للتو لماذا تصر أي زوجة في العالم أن تنجب من زوجها بسرعة إذا كانت تحبه الحب الأعظم والأنبل.. وعرفت أن ثمة مشاعر نبيلة تنفجر في واقع سيئ وأيضاً من فعل سيئ، هاهي الحياة تعلمني أشياء غامضة ومجهولة بالنسبة لي.. أدركها وأعيشها للوهلة الأولى، وسماح تتعلق بي بعنفٍ يخيفني أحياناً.. وأصبحتْ تداوم على استئجار بيت في فصل الشتاء حتى لا تبتعد عني، وفي الصيف تعود وتعيد ابني إلى الحرية الغجرية التي تسحرني والتي أتمنى أن يعيشها ابني لحظة بلحظة بدلاً عني ما دمتُ أعجز عن ذلك.

الساعة العاشرة من صباح يوم الاثنين المشؤوم من الشهر المقرف تشرين الثاني الأسود الذي لا أتفاءل في يوم واحد منه منذ طفولتي وقفتْ سماح العظيمة أمامي في مقر العمل ولم يسبق لي أن رأيتها شاحبة ومنهكة بهذا القدر المخيف. وبدأ طائر الشؤم يحلّق في سمائي ينهش أي لحظة جميلة ويترك الويلات ، ليس في الأمر ما يسرفقط لأنه الشهر الحادي عشر المقرف إنه أسوأ الشهور على الإطلاق بالنسبة لي

- إنه عند الطبيب

- ماذا حدث ؟

- العالم كله ملغوم في داخلي إبننا يا مجنون يحتضر في هذه اللحظات على سرير في المشفى

- ونزلت دموعها ، لم يسبق لي أن شاهدت مثل هذه الدموع الغريبة في عينيها : أرجوك انظري إلى الناس كوني هادئة ماذا حدث..؟

- فقتُ في السادسة صباحاً ألقيت نظرة إليه ، رأيتُ وجهه كليمونة.. حملته على ذراعي وصرخت : انهضلقد مات الولد ، انهض ألن تشبع نوماً ٠ وانتفض زوجي ، حمله على يديه كعصفور يحتضر ، قبّله قبلتين على خديه الصفراوين وتحرك الطفل في يديه بالكاد وكأنه يودع حركاته الأخيرة في الحياة ٠ ركضنا وجئنا به إلى المشفى إنه في حالة سيئة.

وفي لحظة دون أن أدري نزلتْ دموعي وارتخت مفاصلي وأنا أنظر إليها تتحدث بقلق وانتقلتُ إلى عالم كئيب، أتخيل ابني الذي بلغ عامه الثاني يجلس على كتفَي وقد أسدل ساقيه على الكتفين ويتمسك برأسي ٠٠ ستولى شعور كئيب عليَّ

لا بد أن أقدّم له كل ما لدي حتى يشفى وأي شيء أثمن منه بالنسبة لي لا شيء لي غيره في الحياة إنه الحياة المجهولة التي كنت أبحث عنها ٠ وخرجتْ كلمات جافة من حنجرتي : ماذا رأى الطبيب في المشفى ؟.

- لا أعرف ، لم أحتمل النظر إليه على ذاك السرير المرعب ، تعرف أنني لاأحتمل رائحة الأدوية والبقاء فترة طويلة في هكذا أماكن ، لكنه ابني سوف أبقى إلى جانبه حتى آخر نفس ، لكنني جئت لأخبرك بما حدث ، إنني خائفة وكأنني لن أراه مرة أخرى ٠وهرولتْ سماح في الشارع بثوب النوم.. لحقتها إلى المشفى.. لم أدع زوجها يراني.. طفلنا يستلقي على سرير ويحتضر وأعجز عن إلقاء نظرتي الأخيرة على وجهه ، بينما من لا يعنيه الأمر يجلس بالقرب منه وينتحب. ظللتُ في المشفى حتى الواحدة ظهراً أسير في الممرات وأترقب إشارات سماح التي تزيدني اضطراباً وفزعاً وهي تقول إنه ليس بخير. لا أحد لي غيره في العالم أنه ابني الأول أخاف موته أكثر من موتي. وبينما أمضي بقلق العالم في ممرات المشفى الضيقة تعالى صراخ سماح الهستيري

واخترق الصدى كل ركن من أركان المشفى : أيها الرب أنت أعطيتني إياه لماذا أخذته مني؟! أي شيء بقي لي بعدك يا ولدي.. أيها الناس ألا تحزنون للحظة واحدة.. لقد فقدتُ ابني الوحيد في هذا العالم!!. كل مَنْ كان في المشفى من مرضى وأطباء وممرضات وزوّار حضر إلى الطابق الثاني ولا أحد بمقدوره أن يدنوا إليها ويوقفها عن الصراخ : إذا كان ابني قد مات الآن فدعوني أصرخ علّه يسمع لقد فقدتُ أغلى ما كنتُ أملك..!! ومزقّتْ ثيابها جرجرت شعرها وفي لحظة سقطتْ على الأرض وهي تتمتم: أريد أن ألتحق به. عندئذ دنوتُ إليها.. لقد تغيَّر وجهها تماماً أحد الأطباء صرخ بالحشد: دعوها تتنفس ستختنق .

ونقلوها إلى غرفة ، تفرّق الحشد ، صغر وتلاشى ٠ أما أنا كيف سأرى ابني ، سماح ما ذا جرى..؟ هاهو المستقبل يضيع مات ابني ، ابننا ، مستقبلي ، مستقبلنا أنا وسماح الطيبة المسكينة وانفتح باب أسود أمامي مددتُ إليه الخطوة: لن أرى الفرح مرة أخرى لقد أصابتني الطعنة الأكثر ألماً الحزن لن يتركني سأرتدي السواد الأبدي هل سأنسى هل أستطيع أن أنسى تلك المداعبات ذاك الوجه الطفولي البريء وذاك الشعر الذي ينمو للتو ، ذاك التعثر بنطق الحروف ٠ يكاد قلبي ينفجر ، ليته ينفجر ويريحني ليتني متُّ قبل ولادتي إنني أكره الحياة أشعر بثقلها هل سأحتملها بعد هذا وكيف سأعيشها.

لو متُ أنا لما تألمتُ هكذا ولكن موته سيؤلمني مدى الحياة ، أجل أيها الفقيه سوف تعيش تعيسا مدى الحياة ٠ تُرى هل يمكن لي أن أنساه للحظة واحدة في يوم ما، وسماح كيف سأنظر في عينيها كيف تنظر فيَّ أي شعور قاتل هذا الذي يغلي في دمي إنني أتعس رجل في هذا العالم العالم .

وخرجتُ من المشفى لا أعرف أين اتجه لن أراه مرة أخرى وأي شيء سيعوضني هذه الخسارة.. إنها أسوأ فجيعة صادفت حياتي ، لقد

مات قبل أن يحفظ ملامحي قبل أن يحفظ اسمي أو اسم أمه لم يدعني أهبه محبتي وعصارة حياتي : سماح متى سيكبر؟..

- بعد سنوات.
- سأعمل بكثرة سأضاعف جهودي حتى أعطيه كل شيء.
- إنه ابننا الغالي
- أنت لا تعرفين شعوري نحوه
- لأنه ابنك في السر
- يفجر فيَّ طاقات غريبة من المشاعر والأحاسيس.. ألأنه ابني السري؟.
- أنا واثقة لأن لا أحد يعرف غيرك وغيري في هذا العالم كله.

إنه أقرب مخلوق إليَّ هاهو يبتعد إلى الأبدية ويتركني لن أراه مرة أخرى!!.

ومشيت لا أعرف متى وكيف ٠ في الساعة الرابعة رأيتني أرتمي تحت شجرة كينا بالقرب من المقبرة.

وفي الساعة الخامسة من اليوم المشؤوم جاءوا حاملين ابننا كانت سماح ترتدي السواد مع زوجها وأربعة رجال من الجيران ٠ وقفتْ الدراجة النارية ذات الثلاث عجلات التي يقودها زوجها بالقرب من المقبرة.. نزلوا جميعاً كالأشباح.. ووقفتُ على قدمي ، لم أتقدم إليهم لكن سماح لَمَحَتني تحت الشجرة بعد أن بحثتْ بنظراتها في كل الجهات..

حفروا حفرة صغيرة ودفنوه ، ثم أعادوا عليه التراب الأحمر وقفوا قليلاً على أقدامهم نظروا إلى القبر الصغير ثم أداروا ظهورهم وساروا بخطوات بطيئة في حين تقدمهم زوجها بدراجته إلى الطريق العام . هناك لحقوه صعدوا جميعاً وألقت سماح نظرة أخرى إليَّ وابتعدتْ الدراجة . دنوت إلى القبر الصغير ، شدني منظر التراب

الذهبي الأحمر المفتت الخارج لتوه من الجوف ، جثوت على ركبتَي قلبي ووقع أنفي على التراب يستنشق منه رائحة ابني الميت .